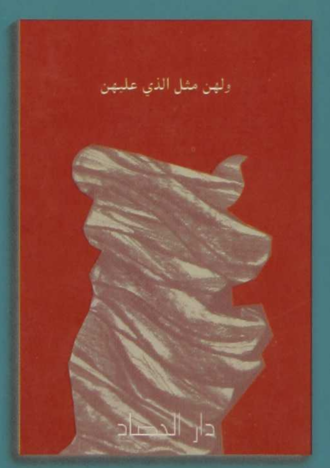
د. رفعت حسان

الإسلام وحقوق النساء



ترجمة

جهان الجندي

١٤٠
٢م

الإسلام وحقوق النساء

- الإسـلام وحـقـوق الـنـسـاء
- دار الحصاد للنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ برامكة

هـ ، فاكس : 2126326

ص.ب : 4490

- الطبعـة الأولـــى : 1998

تأليف: رفعت حسان

الإسلام وحقوق النساء

ترجمة: جهان الجندي

لمحة عن المؤلفة

ـ ولدت في لاهور في باكستان.

ـ حصلت على بكالوريوس في اللغة الإنكليزية والفلسفة بدرجة شرف B. A. Honors من كلية St. Mary في جامعة Durham في إنكلترا عام ١٩٦٤ .

ـ درَّست لمدة قصيرة في جامعة بنجاب في لاهور.

ـ حصلت على دكتوراه في الفنون من كلية St. Mary عام ١٩٦٨ .

ـ بعد أن فتح الغرب أبوابه للعلماء القادمين من الخارج انتقلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتدرِّس وتبحث عام ١٩٧٢ .

ـ بدأت عملها كعاملة دين مدافعة ومناصرة لحقوق النساء عام ١٩٧٤ إذ قامت بدراسة امتدت عشر سنوات للنص القرآني. وأصبحت بنتيجتها واعية للفجوة بين المخططات القرآنية للنساء وبين ما يجري حقيقةً في المجتمعات الإسلامية.

ـ عملت كمحاضرة زائرة وكأستاذة في جامعة Villanova وفي جامعة بنسلفانيا Pennsylvania وفي جامعة أوكلاهوما Oklahoma قبل أن تستقر في جامعة Louisville عام ١٩٧٦ .

ـ عملت أيضاً كأستاذة زائرة في جامعة هارفارد Harvard .

ـ في العام ١٩٩١ كانت تحاضر في كلية الفنون والعلوم في جامعة Louisville كـ «امرأة الإنجازات». تتكلم عن الدين الإسلامي في

المدارس المحلية وفي الكنائس والمؤسسات المدنية بشكل دوري مواظب.

- إن حضورها في المؤتمرين العالميين الأخيرين في بكين (الصين) والقاهرة (مصر) مع نشاطات علمية طوال حياتها دفعها إلى مقدمة الصراع لتحرير النساء المسلمات والتغيير في التربية الإسلامية.
- تركّز بتقديماتها على النساء العاديات اللواتي هنّ فقيرات وأميّات ويعشن في الريف:

«إن تقرير الأمم المتحدة ١٩٤٨ عن حقوق الإنسان لا يعني لهن أي شيء لكن بتذكيرهن أنهنّ مخولات بالعدالة والحماية من أي نوع من أنواع الاضطهاد وعدم المساواة، عندها يصبح ممكناً الوصول إلى قلوبهنّ وعقولهنّ».

المقدمة

كان مؤتمر الأمم المتحدة للسكان والتطور (I. C. P. D)، الذي أُقيم في القاهرة في أيلول ١٩٩٤ ، حدثاً مهماً إلى حد كبير وذلك بـإثارته وعياً عالمياً فيما يخص عدداً من القضايا المركزية في حياة النساء. وقد كان هذا المؤتمر، الذي أُقيم في واحدة من أكثر عواصم العالم الإسلامي أهميّة، على درجة من الأهمية ـ بشكل خاص ـ لدى النساء المسلمات اللّواتي شاركن فيه بأرقام قياسيّة. ومما أعطى هذا المؤتمر أهميّة ودلالة أكبر هو انعقاده في قاهرة (الأزهر) أقدم جامعة في العالم والذي تحمل فتواه أو بلاغاته وزناً كبيراً بين المسلمين.

في جلسة المؤتمر الافتتاحية قدَّم ثلاثة أساتذة ذكور ممثلين لجامعة الأزهر ما سُميَ بـ «وجهات نظر مسلمة» في موضوع «الدين والسكّان والتطّور». وعلى أية حال فإن جزءاً صغيراً فقط من تقديمهم عالج موضوع السكّان والتطور الذي كان هو موضوع المؤتمر. وبعد التأكيد على أن الإسلام ليس ضد تنظيم الأسرة وأنه يسمح بالإجهاض فقط لإنقاذ حياة الأم أو صحّتها، ركّز المتكلمون على وضع النساء في التعاليم (الأعراف) الإسلامية. كان الغرض من التقديم الذي قدمه ممثلون ذوو

نفوذٍ عالٍ في أهم جامعة إسلامية في العالم هو الاستيلاء المسبق على أي نقاش يتناول النساء المسلمات، وذلك من خلال جعل وضع المرأة «المميز» في الإسلام واضحاً لكلٍ من الصحافة الغربية (التي تُظهِر المرأة المسلمة مسكينة ومضطهدة) وللنساء المسلمات ذاتهنّ.

ونتيجة لاعتراضات جاءت من الصالة فإن «وجهات النظر المسلمة» التي مثلها أساتذة جامعة الأزهر الذكور الثلاثة خضعت للمناقشة وللتساؤل إن كانت تمثل أصوات مسلمة نسائية حقيقية بدليل غيابها عن منصة التقديم. وقد طالبت النساء المسلمات بـ «وقت مساوٍ»، وحصلن عليه وأكثر.. حيث برزت النساء المسلمات بشكلٍ مميز في الأيام اللاحقة حين انعقدت عدة جلسات في منتدى NGO ونُوقِشت القضايا المتعلقة بالنساء من قبل النساء أنفسهن.

إن تعيين هوية النساء بالجسد لا بالعقل والروح هو أمر شائع في كثير من الأديان والأعراف الثقافية والفلسفية، ومع ذلك وبالرغم من أن النساء عُرِّفن تقليدياً بأجسادهن فإنه لم يُنظر لهن كـ «مالكات» لأجسادهن. وكانت مسألة من يحكم أجساد النساء (الرجال أم الدولة أم الكنيسة أم المجتمع أو النساء) من أكثر المسائل الأساسية أهمية في مؤتمر القاهرة. إن حقيقة أن النساء المسلمات لم يتحدين بقوة وجهة النظر التقليدية التي تخص أمر تعيين هوية النساء بأجسادهن وحسب ولكن أيضاً مسألة تحكّمهن بأجسادهن، يبين أن النساء المسلمات لم يعدن بلا أسماء أو بلا وجوه وأصوات، وأنهن أصبحن مستعدات للوقوف كي يؤخذن بعين الاعتبار.

لقد قُبل عالمياً الآن بأن القضايا التي قد تظهر وكأنها تخص جسد المرأة بشكل أساسي (كمنع الحمل والإجهاض) لا يمكن النظر إليها بمعزل عن العامل الأكبر لتطور النساء الإجمالي كمخلوقات إنسانية.

لكن وكما أُشير إليه من قِبَلِ عدد من الأشخاص والوكالات فإن التركيز الأساسي لمؤتمر القاهرة كان على قضايا «عدد السكان» التي تركز على الجسد أكثر من التركيز على قضايا «التطور» التي تركز على الشخص ككل.

التحدي الذي كان أمام النساء عامة والمسلمات بخاصة بين مؤتمر السكان والتطور I. C. P. D في القاهرة ومؤتمر الأمم المتحدة الرابع للنساء الذي انعقد في بكين في أيلول ١٩٩٥ كان الانتقال من مجموعة العقول المنفعلة والتي كان من الضروري بواسطتها أن تؤكد النساء حكمهن الذاتي على أجسادهن في مواجهة المعارضة القوية من طرق وبُنى التفكير والتصرف البطريركي (الأبوي) إلى مجموعة العقول الفاعلة والتي يستطعن بواسطتها أن يبدأن الكلام عن أنفسهن كمخلوقات إنسانية مستقلة تملك بالإضافة إلى الجسد عقلاً وروحاً. والسؤال الحيوي الذي كان على النساء المسلمات أن يسألنه لأنفسهن وهن يستعدين للالتقاء في الصين هو: ما الذي فهمته النساء المسلمات ـ اللواتي يشكلن مع الرجال المسلمون وبقية البشرية ما يسمى بخلفاء أو نواب الله على الأرض تبعاً للقرآن ـ على أنه هو معنى حياتهن.

رداً على النموذج الغربي للتحرر الإنساني لم يعد كافياً كتوجه شرقي سابق يتطلب صيغة إيجابية لأهداف المرء ومقاصده، كانت القضية الحرجة التي دُعيت النساء المسلمات ليفكرن فيها ملياً بأقصى جدية بين مؤتمري القاهرة وبكين هي: ما نوع أو أنواع نماذج تحقيق الذات الممكن تطويرها في إطار الإسلام النموذجي الذي يأخذ بعين الاعتبار المُثل القرآنية جنباً إلى جنب مع وقائع العالم المسلم المعاصر؟

لاحظ سانتايانا Santayana بنفاذ بصيرة حاد أن أولئك الذين لا يعرفون تاريخهم مُقدَّرٌ عليهم أن يعيدوه ثانية. وحتى ذلك الوقت، ومع بقاء الغالبية العُظمى من النساء المسلمات غير واعيات للأفكار والمواقف

لدينية التي تُشكِّل القالب الأم الذي جُذِّرت فيه حياتهن، فإنه من غير الممكن التبشير بعهدٍ جديد وإبداع تاريخ جديد، تصبح فيه الرؤية القرآنية لعدالة الجنس والإنصاف حقيقةً واقعةً.

كُتبت هذه الأوراق في هذه المجموعة كقسم من مشروع كان الغرض الأساسي منه هو إثارة الوعي فيما يخص دور الإسلام في حياة النساء المسلمات، وبخاصة في منطقة الشرق الأوسط.

وقد نُشرت أوراق هذه المجموعة بشكل واسع قبل وأثناء انعقاد المؤتمر الرابع للأمم المتحدة في الصين، وقد تمّت كتابة كل ورقة كقطعة مستقلة بحيث يمكن قراءتها بمفردها دون الرجوع إلى الأوراق الأخرى. لكنها أيضاً كانت قسماً من مشروع يُؤلف كتاباً تُجمع فيه كل الأوراق.

آمل وأدعو أن يُسهِّل هذا البحث والانعكاسات المشتركة في الصفحات اللاحقة نموذجاً لانتقال من حالة خوار القوى إلى حالة الإمكانية التي أعتقد أنها بدأت تأخذ مكانها في حيوات العديد من النساء في العالم.

الفصل الأول

هل النساء والرجال
متساوون أمام الله
قضية عدالة الجنس في الإسلام

لقد برزت نساء عديدات كخديجة وعائشة (زوجات الرسول محمد) وربيعة البصري (المرأة الصوفية البارزة) كشخصيات مهمة في الإسلام المُبكر. ومع ذلك بقي التقليد الإسلامي بطريركياً بقوة وبشكل كبير حتى اليوم. هذا يعني من ضمن أشياء أخرى أن المصادر التي أُسست عليها التقاليد الإسلامية بشكل أساسي والتي هي: القرآن [الذي يؤمن المسلمون بأنه كلام الله المنقول إلى النبي محمد (ص) بوساطة جبريل] والسُّنة [تطبيقات وأعمال النبي محمد (ص)] والحديث [العرف الشفهي المنسوب إلى النبي محمد (ص)] والفقه [الفلسفة والتشريع]، قد فُسّرت من قبل رجال مسلمين عزوا إلى أنفسهم بغير حق مهمة تحديد الحالات الوجودية واللاهوتية والاجتماعية والقدرية للنساء المسلمات. وإنه لمن المدهش بشكل قاسٍ أن تكون حتى الآن غالبية النساء المسلمات اللواتي وُضِعنَ لقرون في عبودية جسدية وعقلية وعاطفية قد قبلن الوضع بسلبية واستسلام. هنا تجدر الإشارة إلى أن نسبة الأمية كبيرة في بلدان إسلامية عديدة وبالتالي فإن نسبة الأمية بين النساء المسلمات ـ خاصة أولئك اللاتي يعشن في المناطق الريفية حيث تعيش غالبية السكان ـ هي النسبة الأكبر في العالم.

في الأعوام الأخيرة، وبشكل رئيسي نتيجةً لضغط القوانين المعادية للنساء والتي نُشرت تحت غطاء «الأسلمة» و «التوجه الإسلامي» في

بعض أجزاء من العالم الإسلامي، بدأت نساء على درجة عالية من الثقافة والوعي يعَيْنَّ أن الدين يستخدم كأداة اضطهاد لا كأداة تحرر. ومن أجل فهم الدافع القوي لـ «أسلمة» المجتمعات الإسلامية، خاصة فيما يتعلق بالقيم والمعايير المتعلقة بالنساء، من الضروري أن نعلم أنه من ضمن كل التحديات التي تجابه العالم الإسلامي وربما كان أعظمها على الإطلاق هو «العصرية». يميل المسلمون عامة إلى التفكير بـ «العصرية» بطريقتين: الأولى كـ «تحديث» (Moderization) والذي يرتبط بالعلم والتقنية والتطور المادي، والثانية كـ «تغريب» (Westernization) (من الغرب) والذي يرتبط بالاختلاط وبجميع المشكلات الاجتماعية من الأولاد غير الشرعيين إلى المخدرات وإدمان الكحول. وبينما يعتبر «التحديث» مرغوب به بشكل كبير فإن «التغريب» مرفوض وبنفس الدرجة. ومن المهم هنا أن نلاحظ أنه يُنظر إلى تحرر المرأة المسلمة من قبل كثير من المسلمين على أنه رمز لـ «التغريب» وليس لـ «التحديث»؛ وذلك بسبب مايُعتبر بالنسبة للمجتمعات التقليدية انتهاك للحد الضروري الواجب تواجده بين «الحيز الخاص» الذي تنتمي إليه النساء و«الحيز العام» الذي يخص الرجال. إن وجود النساء في حيّز الرجال يعتبر على درجة عالية من الخطورة لأنه ـ كما يقول الحديث الشائع الذي يرويه الترمذي

«ما اختلى رجل وامرأة إلّا وكان الشيطان(*) ثالثهما».

في العالم الإسلامي اليوم وبسبب ضغط الواقع السياسي والاقتصادي فإن عدداً مهماً من النساء قد يُرَونَ في «الحيز العام». ويشعر وكلاء التقليدية المسلمة بالغيظ كونهم مهددون بالظاهرة التي يعدُّونها انقضاضاً «تغريبياً» بهيئة «التحديث». ويعتقدون أن من الضروري إعادة النساء إلى «حيّزهن» [والذي يُدعى أيضاً مكانهن] إذا ما أريد (لطريقة الحياة الإسلامية الصحيحة) أن تُصان.

(*) عن أبي عباس (ر) أن رسول الله (ص) قال: «لايخلون أحدكم بامرأة [أجنبية منه، إن الشيطان ثالثهما] إلا مع ذي محرم». متفق عليه ـ المترجمة ـ

مع أني بدأت دراستي للقضايا اللاهوتية التي تخص النساء في التقاليد الإسلامية عام ١٩٧٤ إلّا أنّ مستقبلي المهني كعاملة فعالة لم يبدأ إلا في عامي ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ عندما قضيتُ عامين في باكستان، حيث ترافق مع سنٍّ قانون «الحدود المحلي» عام ١٩٧٩ الذي نصّ على أن شهادة المرأة غير مقبولة في جرائم «الحدّ» بما في ذلك جريمة الاغتصاب، وقد رافقته موجة عنف ضد النساء واكتسح البلد كمٌّ كبيرٌ من المنشورات المضادة لهنّ. لقد أدت صدمة العديد من النساء الباكستينيات إلى خروجهن من «سباتهن العقائدي» الناتج عن «التوجه الاسلامي» للنظام الشرعي، الذي من خلال إعلانه لقوانين كقانون الحد وقانون الدليل (١٩٨٤) بالإضافة إلى تهديد التشريعات التمييزية الأخرى (كقانون القصاص وقانون الديّة)، خفّض وضعهن تصنيفيّاً وعمليّاً بشكل محسوب إلى أقّل ممّا للرجل. وسريعاً أصبح من الواضح أن قوى المحافظين الدينيين قررت أن تخفّض دور وأهمية النساء إلى نصف ما للرجال أو أقّل، وأن هذا الموقف نشأ عن رغبة عميقة الجذور لإبقاء النساء في مكانهن والذي يعني جعلهن ثانويات، تابعات وأدنى منزلة من الرجال.

بعد التفكير مليّاً بما يحدث والانعكاسات التي شهدتُها بذعر وقلق متزايدين، سألت نفسي: كيف أمكن تطبيق قوانين ـ غير عادلة بشكل جلي ـ في بلد زعم الالتزام العاطفي مع كل من الإسلام والعصرية؟ كان الجواب واضحاً لدرجة أنني جفلتُ لكونه لم يخطر ببالي من قبل. يمكن للمجتمع الباكستاني (أو أي مجتمع إسلامي آخر) أن يسن أو يقبل القوانين التي تحدد أن النساء أقل من الرجال بطرق أصولية (أساسية) لأن المسلمين بعامة يعتبرون انعدام مساواة النساء مع الرجال من الحقائق البديهية. من ضمن «الحجج» المستعملة لسحق أي اقتراح لمساواة الجنسين، ربما كان التالي هو الأكثر شيوعاً: إنه تبعاً للقرآن الرجال

«قوامون على النساء»[١] (والتي تترجم بشكل عام «حكام» أو «مدبرون»)؛ وإنه تبعاً للقرآن: يرث الرجل ضعف ما ترثه المرأة[٢]؛ وأن شهادة الرجل تُعادل شهادة امرأتين[٣]؛ وأنه تبعاً للنبي (ص): النساء ناقصات عقل (لأن شهادتهن أقل من شهادة الرجال) ودين (بسبب الطمث)[٤].

بما أنني كنت على الأرجح المرأة المسلمة الوحيدة في البلد التي قامت بدراسة عن قضايا النساء انطلاقاً من وجهة نظر لاهوتية غير بطريركية (غير أبوية) فقد طُولبتُ مرات عديدة من قبل نساء قائدات بتبيان استنتاجاتي وإذا كان من الممكن استخدامها لتحسين أوضاع النساء الباكستانيات. وقد حُثثت من قبل نساء فاعلات كُنَّ يعبئن ويقدن اعتراضات النساء في بلد تحت قانون عسكري على مساعدتهن في دحض الحجج التي استخدمت ضدهن على أساس حالة بحالة ونقطة بنقطة. مع أنني كنت تواقة للمساعدة إلاّ أنني لم أكن متأكدة أن أفضل استراتيجية هي، ببساطة، الرد بحجة على كل حجة استخدمت لحرمان النساء من حقوقهن الإنسانية (والإسلامية). برأيي، كان يجب أولاً وقبل كل شيء فحص الأرضية اللاهوتية التي تجذّرت فيها كل الحجج المضادة للنساء، لمعرفة إن كان هناك ما يمكن القيام به حقاً للتأكيد أن النساء والرجال، من وجهة نظر الإسلام القاعدي، هم بشكل أساسي متساوون بالرغم من الاختلافات البيولوجية وغيرها.

وكنتيجة لدراسة وتفكيرٍ أعمق وصلتُ إلى إدراك أنه في التقليد الإسلامي واليهودي والمسيحي تُوجد ثلاثة افتراضات لاهوتية بني عليها تفوق الرجال على النساء. وهذه الافتراضات الثلاثة هي:

١ ـ إن المخلوق الأساسي لله هو الرجل وليست المرأة لأنه يُعتقد أن المرأة قد تمَّ خلقها من ضلع الرجل لذلك فهي مشتقة وثانوية وجودياً.

٢ ـ إن المرأة وليس الرجل هي العامل الأساسي فيما يشار إليه بـ«هبوط الإنسان» أو طرده من جنة عدن لذلك فإن كل «بنات حواء» يجب أن يُنظر إليهن ببغض وشك واحتقار.

٣ ـ إن المرأة لم تُخلق من الرجل فقط بل ومن أجله مما يجعل وجودها مساعداً ووسيطاً وليس أساسياً أولياً.

إن الأسئلة اللاهوتية التي يمكن اعتبار الافتراضات السابقة كأجوبة لها هي:

١ ـ كيف خُلقت المرأة ؟

٢ ـ هل كانت المرأة هي المسؤولة عن «هبوط» الرجل (الانسان)؟

٣ ـ لماذا خُلقت المرأة ؟

إنه من غير الممكن في المجال القصير لورقة عملي هذه أن يتم التعامل بشكل شامل مع أي من الأسئلة الآنفة الذكر. لكن مع مناقشة مختصرة لكل سؤال قمت بإيضاح الطريقة التي فُسّرت فيها مصادر الإسلام المعياري لإظهار كيف أن النساء أدنى من الرجال.

كيف تمّ خلق المرأة؟

يعتقد المسلم العادي بجدية، كما يعتقد اليهودي أو المسيحي العادي، أن آدم كان أول خلق الله وأن حواء خُلقت من ضلعه. وإذا كانت هذه الأسطورة متجذرة بشكل واضح في رواية يهوه للخلق في (سفر التكوين ٢: ١٨ ـ ٢٤). فإنه ليس لها أي أساس في القرآن الذي يصف خلق الإنسانية بعبارات مساواتية تماماً.

في الفقرات الثلاثين أو أكثر التي تخص موضوع خلق الإنسان يستخدم القرآن تعابير شاملة عامة للإنسانية [الناس ـ الإنسان ـ البشر]

وليس هناك أي ذكر لحواء، وتظهر كلمة «آدم» خمس وعشرون مرة في القرآن لكنها استعملت إحدى وعشرين مرة كرمز للإنسانية الواعية بذاتها.

هنا تجدر الإشارة إلى أن كلمة «آدم» هي كلمة عبرية من الجذر أدمة والتي تعني التربة وتؤدي بشكل عام وظيفة كإسم جمعي يشير إلى «الإنسان» وليس إلى شخص ذكر. غالباً لا تشير كلمة «آدم» ـ والتي استعارتها العربية من العبرية ـ في القرآن إلى كائن إنساني معين بل تشير إلى الكائنات الإنسانية بطريقة خاصة كما وضّح محمد إقبال:

> «في الواقع استخدم القرآن في الآيات التي تتعلق بأصل الإنسان الحي الكلمات التالية: بشر ـ إنسان وليس آدم التي يحتفظ بها للإنسان بوضعه ذي أهلية وقدرة على أن يكون خليفة الله على الأرض. إن غرض القرآن مثبّت أكثر بحذف الأسماء الخاصة المذكورة في القصة التوراتية "آدم وحواء" وإن مصطلح "آدم" يُحتفظ به ليستخدم كمفهوم أكثر من استخدامه كاسم لإنسان فرد مادي قائم بذاته. إن الكلمة ليست بدون مستند في القرآن نفسه»[٥].

في تحليل وصف القرآن لقصة خلق الإنسان، يظهر كيف أنه (أي القرآن) يستخدم بإنصاف كلاً من التعابير الأنثوية والذكرية بالإضافة إلى اللغة المجازية ليصف خلق الإنسانية من مصدر منفرد كون خلق الله الأصلي كان الإنسانية دون تميز وليس رجلاً أو امرأةً [اللذيْن ظهرا <u>معاً</u> في وقت لاحق] وهذا متضَّمن في عدد من النصوص القرآنية[*]. إذا كان

(*) في محاضرة ألقتها «رفعت حسان» في أمستردام. نبَّهت إلى أن كل ترجمة للقرآن هي في الحقيقة تأويل له. وقالت: أن اللغة العربية هي لغة جذور مثلاً في سورة النساء «خلقكم من نفسٍ واحدة». في العربية (نفس) هي كلمة مؤنثة. ثم يتابع «وخلق منها زوجها» (النساء:١) بيّنت «رفعت حسان» كيف أنه لاتوجد ترجمة واحدة تقول هذا، بل تقول مامعناه «وخلق منه زوجته. وتساءلت، كيف أصبحت (his) . (her) . كيف أصبحت منها . منه ؟؟ (المترجمة)

القرآن لا يجعل أي فرق بين خلق الرجل والمرأة [وهو حقاً لا يفعل ذلك] فلماذا يعتقد المسلمون أن حواء قد تمّ خلقها من ضلع آدم ؟

يصعب تصور أن المسلمين أخذوا هذه الفكرة مباشرة من سفر التكوين: ٢ اذ أن عدداً قليلاً جداً منهم يقرأ التوراة.

إنه لمن المحتمل أكثر بكثير أن تكون قصة الضلع قد دخلت التقليد الإسلامي من خلال كونها اندمجت في الأحاديث التي كُتبت في القرون المُبكرة للإسلام. في هذا المنحى تبدو الأحاديث اللاحقة ذات أهمية خاصة حيث أنها متوضعة في «صحيح البخاري» و «صحيح مسلم» اللذين ينظر إليهما المسلمون السُّنة على أنهما مجموعتي الأحاديث الأكثر جدارة بالثقة والتي لا يتخطى الاستناد إليهما والثقة بهما إلا القرآن:

«حدثنا اسحق بن نصر حدثنا حسين الجعفي عن زائدة عن ميسرة عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال:

«من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يؤذي جاره واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خُلقن من ضلع وأن اعوج شيء من الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً».

«حدثنا عبد العزيز بن عبد الله قال: حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال:

«المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج».

في مكان آخر من كتاباتي فحصت الأحاديث السابقة وبينت

ضعفها بالنظر إلى مظهرها الشكلي (أي الإسناد أو قائمة الناقلين) بقدر الاهتمام بمحتواها. إنها وبشكل واضح عكس روايات القرآن عن خلق الإنسان، وحيث أن كل العلماء المسلمين متفقون على المبدأ الذي يقول أنه إذا تعارض أي حديث مع القرآن لا يمكن قبوله كحديث موثوق، فإن الأحاديث المذكورة السابقة يجب أن تكون مرفوضة اعتماداً على أرضية مادية، لكنها تستمر في كونها جزءاً من التقليد الإسلامي وهذا يعود بالتأكيد وبمقدار هام إلى حقيقة كونها متضمنة في مجموعة أحاديث محمد بن إسماعيل البخاري و مسلم بن الحلاج واللذين يُدعَيان بـ «الصحيحين» [من صحيح] واللذين: «يمثلان مرجعاً لم يتم التعرض له بالنقد، بالرغم من إمكانية نقده وبشكل تفصيلي، ولكنه يستمد نفوذاً يصعب اختراقه وذلك من «الإجماع» الذي وظيفته التوثيق»(٦). لكن استمرارية شعبية هذه الأحاديث بين المسلمين عامة تدل أيضاً أنها ترتبط بشيء مطمور عميقاً في الثقافة الإسلامية أي الاعتقاد أن النساء مشتقات وثانويات في مجرى الخلق الإنساني.

لاهوتياً، بدأ تاريخ وضع المرأة في مرتبة دنيا في التقليد الإسلامي ـ إضافة للتقليد اليهودي والمسيحي ـ مع قصة خلق حواء من ضلع «معقوف». ويتطلَّب تغيير وضعها العودة إلى نقطة الخلق وتحديد السُّجل مباشرة.

إن قضية خلق المرأة هي قضية أساسية لاهوتياً أكثر من أي قضية غيرها، وذلك لأنه لو كان الرجل والمرأة خُلقا متساويين من قبل الله الذي هو المانح المطلق للقيم، فإن من غير الممكن أن يصبحا غير متساويين جوهرياً أساسياً في وقت لاحق.

من ناحية أخرى إذا كان الرجل والمرأة قد خُلقا غير متساويين من قبل الله فإنه من غير الممكن أن يُصبحا متساويين أساسياً في وقت لاحق.

إذا أيدنا وجهة النظر التي تقول أن الرجل والمرأة قد خُلقا متساويين من قبل الله [والتي هي تعاليم القرآن] فإن عدم المساواة الموجودة بين الرجال والنساء لا يمكن النظر إليها كأمر شرعي وتفويض من الله بل لا بد من النظر إليها كتهديم لخطة الله الأصلية من أجل الإنسانية.

هل كانت المرأة هي المسؤولة عن «هبوط» الإنسان؟

عموماً يجيب المسلمون ـ كما اليهود والمسيحيون ـ على السؤال السابق بتأكيد جازم، مع أن جواب كهذا غير مسوَّغ من القرآن. هنا لا بد من الإشارة إلى أن رواية القرآن عن حدث «الهبوط» تختلف بشكل مهم عن الرواية التوراتية. فبينما، كبداية، لايوجد في (سفر التكوين: ٣) شرح لماذا أغوت الأفعى إمّا حواء وحدها أو كلاً من آدم وحواء، فإنه يُصرِّح بشكل واضح في القرآن عن سبب شروع الشيطان (أو إبليس) في تضليل الزوج الإنساني في الجنة في عدد من النصوص[٧].

إن رفض الشيطان طاعة أمر الله بالسجود لآدم سجود طاعة وإذعان، نتج عن اعتقاده أنه كمخلوق من نار فهو متفوق جوهرياً على آدم الذي خُلق من تراب. عندما يُدان لغروره من قبل الله ويُؤمر أن يغادر في حالة خزي مُذِّل يُلقي الشيطان بتحدٍّ: أنه سيثبت لله أن آدم وذريته عاقّون ضعفاء ومن السهل غوايتهم، ولذلك فهم ليسوا جديرين بالشرف الذي منحهم إياه الله. وبدون محاولة لإخفاء نواياه في الهجوم على الكائنات الإنسانية من كل الاتجاهات طلب الشيطان منح مهلة حتى اليوم الموعود.ولم يُعط المهلة فقط، بل قال الله للشيطان أن يستخدم كل قواه وإراداته لمهاجمة الكائنات الإنسانية ليرى إذا كانوا يتبعونه.

تبدأ الآن مأساة كونية متضمنة التعارض السرمدي الأبدي بين مبادئ الخير والشر، الذين يظلان على قيد الحياة طالما الكائنات الإنسانية تمارس استقلالها الأخلاقي وحكمها الذاتي المعنوي مختارةً بين «الطريق القديم» (الصراط المستقيم) و «الطريق المعوجّ».

بلغة الرواية القرآنية فإن ما حصل للزوج الإنساني في الجنة هو نتيجة للتقاطع بين الله والشيطان. في تتمة الرواية نعلم أن الزوج الإنساني قد أُمِرا ألا يذهبا قرب الشجرة خشية أن يُصبحا «ظالمين». وبـإغراء وتضليل من الشيطان بعصيان الله، لكن في (سورة٧: الأعراف آية ٢٣) يعترفان أمام الله أنهما حقاً «ظلما» نفسيهما وأنهما ينشدان جدياً مغفرة ورحمة الله، فيؤمرا بالهبوط من الجنة لكن القرآن في لغة الخطاب يستخدم صيغة التثنية مرة واحدة فقط في (السورة ٢٠: طه ١٢٣) وفي البقية يستخدم صيغة الجمع التي تشير بالضرورة إلى أكثر من اثنين وبشكل عام تُفهم كإشارة للإنسانية ككل.

﴿وياآدمُ اسكُنْ أنت وزوجُك الجنة فكلا من حيثُ
شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين *
فوسوس لهما الشيطان ليُبْدي ما وُري عنهما من
سؤأتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ
أن تكونا مَلَكيْنِ أو تكونا من الخالدين * وقاسَمَهُما
إني لكما لمِن الناصحين * فدلّاهما بغرورٍ فلما ذاقا
الشجرةَ بدتْ لهما سوأتُهُما وطَفقا يخضعان عليهما
من ورق الجنة وناداهما ربُّهُما: ألم أنهكما عن تِلكُما
الشَّجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدُوٌّ مبين *
قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمْنا
لنكونَنّ من الخاسرين * قال اهبِطوا بعضكم لبعضٍ
عدوٌّ ولكم في الأرض مستقر ومتاعٌ إلى حين﴾.

سورة الأعراف: (١٩ ـ ٢٤)

﴿فَأَزلّهُما الشيطان عنها فأخرَجُهما مما كانا فيه وقلنا
اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مُستقر
ومتاع إلى حينٍ﴾ (البقرة:٣٦)

﴿.... ثم اجتباه ربُّهُ فتاب عليه وهدى * قال اهبطا
منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌ فاما يأتيّنكم مني
هدى فمن اتَّبع هُداي فلا يضلُّ ولايشقى﴾

(سورة طه:١٢٣)

في إطار لاهوتية القرآن، لا يمكن اعتبار الأمر بالخروج من الجنة المفروض على آدم أو على أبنائه كعقوبة لأن آدم قُدِّر له دوماً أن يكون خليفة الله على الأرض (السورة ٢: البقرة ٣٠):

﴿واذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرضِ
خليفةً قالوا أتجعلُ فيها من يُفسِدُ فيها ويسفِكُ الدِّماء
ونحن نسبحُ بحمدِكَ ونقدس لك...﴾

«والأرض ليست منفى بل إنه مُصرَّحٌ في القرآن بأنها مكان سكن الإنسانية ومصدر كسب وفائدة لها»(٨).

وبالحديث بدقة، لا يوجد هناك في القرآن «هبوط»، وما تركز عليه رواية القرآن هو الاختيار الأخلاقي الذي كان على الإنسانية أن تقوم به مواجهة بالخيارات المُقدَّمة من الله والشيطان. وهذا الأمر يصبح واضحاً إذا فكر المرء ملياً في (السورة ٢: البقرة ٣٥):

﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكُلا منها
رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من
الظالمين﴾ و(السورة ٧ : الأعراف ١٩).

بمعنى آخر قيل للزوج الإنساني أنهما إذا اقتربا من الشجرة سيُعدّان

من ضمن أولئك الذين يرتكبون «الظلم» وتعليقاً على أصل «الظلـم» يقول توشيهيكو ايزوتسو Toshihiko Izutsu :

إن المعنى الأساسي لـ «الظلم» في رأي عدة معجميين موثوقين أنه [الوضع في مكان خاطئ] وفي المجال الأخلاقي فإنه يعني أولاً [التصرف بطريقة ما كانتهاك أو مخالفة الحد الخاص الصحيح والتعدي على حق شخص ما آخر] . اختصاراً وبشكل عام فإن «الظلم» هو فعل غير العدل بمعنى تخطي المرء حدوده والقيام بما ليس من حقه فعله (٩).

لقد أصبح الزوج الإنساني ـ بمخالفة الحدود الموضوعة من الله ـ مذنباً بـ «الظلم» تجاه نفسيهما؛ هذا «الظلم» يتألف من أخذهما مسئولية الاختيار بين الخير والشر كما أشار إليه محمد إقبال:

«إن القصة القرآنية عن الهبوط ليس لها أي علاقة مع الظهور الأول للإنسان على هذا الكوكب، وبالأحرى فإن غرضها هو توضيح أصل الإنسان من حالة الفطرة الغريزية الأولية إلى الامتلاك الواعي لذاتٍ حرة قادرة على الشك والعصيان. إن الهبوط لايعني أي فساد أو فسوق أخلاقي: إنه انتقال الإنسان من حالة عدم الوعي البسيطة إلى الوميض الأول للوعي بالذات... وكذلك فإن القرآن لا ينظر إلى الأرض كمكان تعذيب حيث تسجن الإنسانية الأولية الشريرة من أجلِ فعل الخطيئة الأصلي. إن فعل الإنسان الأول للعصيان هو أيضاً فعله الأول للاختيار الحر، ولذلك فإنه تبعاً لرواية القرآن غُفِر لآدم عصيانه الأول. إن مخلوقاً قُررت جميع تحركاته كالآلة، لا يمكن له فعل الخير. وهكذا فالحرية هي حالة من الخير، لكن السماح للذات (الأنا) المحدودة التي تملك القدرة على الاختيار والانبثاق هو حقاً مخاطرة عظيمة. من أجل أن تختار الحريةُ الخيرَ فإنه يتضمن أيضاً أن تختار الحرية ما هو عكس الخير. إن قيام الله بهذه المخاطرة يُظهر ثقته الهائلة بالإنسان الذي يبقى القرار بيده ليقوم بما يسوِّغ هذه الثقة(١٠).

بالرغم من أنه لا وجود هناك لـ«الهبوط» أو «الخطيئة الأصلية» في القرآن فإن واقعة الفصل الموصوف في (سفر التكوين ٣) عن هبوط الإنسانية والجنس المحظور التي لعبت دوراً كبيراً في دعم أسطورة الشر الأنثوي في التقليد المسيحي موجودة أيضاً في عقول العديد من المسلمين ولها تأثير سلبي إلى درجة كبيرة على حياة الملايين من النساء المسلمات.

يمثل التعليق التالي لـ **أبو الأعلى المودودي** ـ أحد علماء الإسلام المعاصرين الأكثر نفوذاً ـ تفكير العديد إذا لم يكن معظم المسلمين:

> «إن الغريزة الجنسية هي نقطة الضعف العظمى في العرق الإنساني، ولهذا السبب اختار الشيطان موضع الضعف هذا ليهاجم خصمه وابتكر المكيدة ليضرب احتشامهم. ولذلك فإن الخطوة الأولى التي اتخذها في هذا الاتجاه كانت ليكشف لهم عُريهم وبذلك يفتح الباب أمامهم على قلة الاحتشام ويضللهم بالجنس (الفعل الجنسي). وحتى هذا اليوم ما يزال الشيطان وتابعيه يتّبعون المكيدة نفسها بحرمان المرأة من مشاعر الخجل والحياء، وهم لا يستطيعون التفكير في أية مكيدة يتقدمون فيها إلا بعرض وفضح المرأة للكل»[(١١)].

ومع إن وصم المرأة بالعار كـ «بوابة الشيطان»[(١٢*)] ليست على الإطلاق غرض رواية القرآن من قصة «الهبوط»، مع ذلك فإن المسلمين ليسوا بأقل من اليهود والمسيحيين في استخدامهم القصة لينفثوا عن

(١٢*) ـ لقد وردت هذه العبارة على لسان Tertullian (١٦٠ ـ ٢٢٥) وهو أحد آباء الكنسيين من شمال افريقيا حيث كتب يقول: «وهل أنتن لا تعلمن أنكنّ حوّاء ». «إن نقمة الله على جنسكنّ تحيا في هذا العصر: من الضروري للذنب أن يعيش أيضاً. أنتِ بوابة الشيطان، أنتِ من فضّ تلك الشجرة المحرّمة، أنتِ الهارب الأول من القانون الإلهي، أنت التي أقنعته والذي لم يكن الشيطان شجاعاً بما فيه الكفاية لمهاجمته. لقد حطّمت بسهولة كبيرة صورة الله، الرجل. بسبب استحقاقك للعقوبة ـ وهي الموت ـ حتّى ابن الله عليه أن يموت».

مشاعر كرههم للنساء وهذا واضح من الأحاديث ذات الشعبية المستمرة كالتالية:

[حدثنا عثمان بن الهيثم حدثنا عوف عن أبي رجاء عن عمران عن النبي (ص) قال: اطلّعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلّعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء] .

«عن أسامة بن زيد (ر) عن النبي (ص) قال: ماتركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء» متفق عليه(*)

لماذا خُلقت المرأة ؟

لا يدعم القرآن ـ الذي لا يميز ضد النساء في سياق فصلي الخلق و «الهبوط» ـ وجهة النظر التي يحملها العديد من المسلمين والمسيحيين واليهود والتي تقول أن النساء لم تُخلق <u>مـن</u> الرجل فقط بل <u>ومن أجله</u> أيضاً.

ان خَلْقَ الله ككل هو للحق:

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ (سورة ١٥: الحجر ٨٥) وليس لِلَّعب: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾

(سورة ٢١: الأنبياء ١٦).

(*) عن جابر أن رسول الله (ص) قال: إن المرأة تُقبل في صورة شيطان وتُدبر في صورة شيطان فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأتِ أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه.
(عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص) لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر) (المترجمة).

إن فكرة خلق الله ككل بالحق، هي أحد أهم الأفكار الرئيسية في القرآن.

شُكِّلَت الإنسانية ـ المؤلفة من الرجال والنساء معاً ـ في أحسن تقويم: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ (سورة ٩٥: التين ٤) وطولبت بالاستقامة التي تتطلب احترام «حقوق الله» إضافة إلى «حقوق العباد». إن القرآن لا يجعل المرأة والرجل متساويين بشكل تام في نظر الله فقط بل إنهما كذلك عضوان وحاميان لبعضهما البعض. وبكلمة أخرى لا يخلق القرآن سلطة يكون فيها الرجل فوق المرأة ولا يحرِّض الرجال ضد النساء في علاقة عدائية.

لقد خُلِقوا كمخلوقات متساوية لله العدل الرحيم التي تقضي مشيئته أن يعيشوا معاً في تآلف وصلاح. بالرغم من توكيد القرآن على تساوي المرأة والرجل فإن المجتمعات الإسلامية بعامة لم تنظر إلى الرجال والنساء كمتساويين، بخاصة في سياق الزواج. وقد لاحظت فاطمة المرنيسي بذكاء شديد أن:

«أحد الصفات المميزة للجنسانية المسلمة، هي إقليميتها، والتي تعكس تقسيماً معيناً للعمل وإدراكاً معيناً للمجتمع وللقوة. إن محلية الجنسانية المسلمة تحدد درجات ومهمات ونماذج نفوذ محجوزة في حيِّزها. كان يُعنى بالمرأة مادياً من قبل الرجل الذي امتلكها مقابل طاعتها الكلية وخدماتها الجنسية والتناسلية. أُسِّس النظام كله بحيث أصبحت الأمة الإسلامية واقعياً، مجتمعاً من المواطنين الذين يمتلكون ضمن الأشياء الأخرى الإناث نصف السكان.. حصل المسلمون الرجال دوماً على حقوق وامتيازات أكثر من النساء المسلمات، بما فيها حق قتل نسائهم، لقد فرض الرجل على المرأة وجوداً ضيقاً زائفاً، فيزيائياً وروحياً»[١٣].

إن الرفض الأساسي في المجتمعات المسلمة لفكرة تساوي المرأة والرجل عائدٌ للاعتقاد المتجذِّر عميقاً أن النساء ـ اللواتي هن أدنى في الخلق [كونهن خُلقن من ضلع معقوف] والصلاح [كونهن ساعدن الشيطان في إحباط خطة الله من أجل آدم] ـ قد خُلقن بشكل أساسي ليَكُنَّ ذوات فائدة للرجال المتفوقين عليهن.

إن الفوقية المزعومة للرجال على النساء التي تتخلل التقليد الإسلامي ـ واليهودي والمسيحي ـ متجذرة ليس فقط في رواية الأحاديث بل أيضاً في التأويلات الشائعة لبعض النصوص القرآنية.

هناك نصان قرآنيان بشكل خاص ـ يُستشهد بهما بشكل عام لدعم النزاع أن الرجال لهم «درجة أفضلية» على النساء.

النص الأول:

﴿الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهنُ واهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلا...﴾ ـ (سورة النساء: آية ٣٤).

النص الثاني:

﴿والمطلقاتُ يتربصن بأنفسهنّ ثلاثة قروءٍ ولا يحلُّ لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهنّ إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر وبُعُولَتُهنَّ أحقُّ بردّهنّ في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهنّ مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهنّ درجةٌ والله عزيز حكيم﴾

(سورة البقرة: ٢٢٨).

ومن التأويلات الشائعة بهذا الاتجاه قراءة أبو الأعلى المودودي للنص العربي:

«الرجال هم مدبرو شؤون النساء لأن الله قد جعل واحدهم متفوق على الأخريات ولأن الرجال ينفقون من ثرواتهم على النساء. ولذلك فالنساء الفاضلات الطاهرات هن النساء الطائعات: يحرسن حقوقهم بعناية أثناء غيابهم تحت رعاية ومراقبة الله أما بالنسبة لأولئك اللاتي لديكم خشية من تحدّيهن فعاتبوهن وأبعدوهُن عنكم في المضاجع واضربوهن ثم إذا استسلمن لكم لا تبحثوا عن عذر لمعاقبتهن: واعلموا جيداً أن هناك الله فوقكم، والذي هو أعلى وعظيم»(١٤).

إنه من الصعب المغالاة في التأثير السلبي الذي يسببه الفهم المسلم الشائع للآية السابقة على حياة النساء المسلمات.

في مكان آخر من عملي قمت بتحليلات تفصيلية لهذه الآية لإظهار كيف تمَّ تفسيرها بشكل خاطئ. فالكلمة المفتاحية على سبيل المثال في الجملة الأولى هي «قوامون» وغالباً ماتُترجم هذه الكلمة كـ «حاكمين» أي أن الرجال «حاكمين» على النساء. إن سلطة (هيئة كهنوتية) قريبة من تلك التي اخترعها القديس بولس St. Paul وتابعيه في التقليد المسيحي قد أقيمت في الأمة الإسلامية. لغوياً كلمة «قوامون» تشير إلى هؤلاء الذين يوفرون وسائل المعيشة. في تفسيري لهذه الآية ناقشتُ أن فعل دعم النساء اقتصادياً قد نُسب إلى الرجال في سياق فترة الحمل، العملُ الذي لا يمكن القيام به إلا من قِبَل النساء.

إن معنى هذه الآية ليس إعطاء الرجال قوة على النساء. إنه بالأحرى التأكيد على أنه ليس على النساء ـ طالما أنهنّ يقمن بمهمتهن الهامة في حمل الأطفال وتنشئتهم ـ القيام بمسؤوليات إضافية ككاسبات رزق أيضاً. إن جذر كلمة «ضرب» والتي تُرجمت عامة بالضرب هو من أكثر جذور الكلمات شيوعاً في اللغة العربية ولها عدد

من المعاني المحتملة. ان اختيار الغالبية العظمى من المترجمين ـ والذي صادف أن جميعهم رجال ـ ترجمة الكلمة بمعنى (ضرب) يدل بوضوح على انحياز لتأييد السيطرة الذكورية والمجتمع الشرقي الذكوري.

والنص القرآني الثاني الذي يُستخدم لدعم فكرة تفوق الرجال على النساء هو المحتوى الخاص لـ «العدّة»(*) فالرجال لهم «عليهن درجة»:

﴿والمطلقات يتربَّصنَ بأنفسهنَّ ثلاثة قُروءٍ .... ولهن مثلُ الذي عليْهِنَّ بالمعروف وللرجال عليهنّ درجةٌ والله عزيز حكيم﴾. (الآية السابقة ٢٢٨ من سورة البقرة)

وهي في هذه الحالة عدم وجوب الانتظار ٣ أشهر ليتزوجوا ثانية فذلك لأنهم بخلاف النساء لا يستطيعون أن يحملوا أطفالاً [فانتظار المرأة ٣ أشهر هي للتأكيد من أنها ليست حامل] . إن هدف هذه الآية التأكيد على العدالة وهذا يُوضَّح فيها: «**ولهن مثل الذي عليهن** بالمعروف».

إن قراءة القرآن من خلال عدسة الحديث، هو برأيي السبب الرئيسي في الفهم الخاطئ والتفسيرات والتأويلات الخاطئة لكثير من النصوص التي استخدمت في إنكار مساواة وعدالة النساء. ويستخدم الحديث التالي غالباً في رفع الرجل إلى مقام «الله في الصيغة الأرضية»:

جاء رجل إلى رسول الله ومعه ابنته وقال: يا رسول الله: هذه ابنتي أبت أن تتزوج، فقال لها الرسول: أطيعي أباكِ. فقالت والذي بعثك بالحق لا أتزوج حتى تخبرني ما حق الرجل على زوجته. قال:

(*) العدّة: هي الفترة التي يتوجب على المرأة المطلقة أن تنتظرها قبل أن تتزوج من رجل آخر. ومدتها ثلاثة أشهر بدءاً من تاريخ الطلاق.

«حق الزوج على الزوجة لو كانت به قرحة فلحستها، أو انتثر منخراه صديداً أو دماً ثم ابتلعته ما أدّت حقّه».

عندها أجابت الفتاة: والذي بعثك بالحق لا أتزوج أبداً(*).

إن إيماناً توحيدياً بشكل صارم كالإسلام ـ والذي يسبب «الشرك» أيّ الايمان باله آخر مع الله، والخطيئة الوحيدة غير المغتفرة ـ لا يمكن أن يسمح لأي إنسان أن يعبد كائناً آخر مع الله. لكن هذا الحديث يوضح أنه إذا كان ليس الله من يرضى بجعل الزوجة تسجد لزوجها فإنها على الأقل رغبة النبي.

وبما أن كل كلمة أو تصرف أو عظة للنبي تؤخذ ليخشى منها المسلمون منها بعامة، فإن هذا الحديث كان له تأثيراً كبيراً على النساء المسلمات. ان كيفية نسب حديث كهذا إلى النبي الذي نظر إلى مبدأ التوحيد كأساس للإسلام هو بالطبع شيء يصدم تماماً.

المحصلة

تمت الإشارة في السياق السابق إلى الافتراضات اللاهوتية الأصلية التي شوهت الطريقة التي نظرت بها الثقافة الاسلامية بعامة إلى النساء. ومؤكد أن تلك الافتراضات والاستنتاجات الناجمة عنها سببت ـ نظرياً وعملياً ـ نتائج خطيرة على النساء المسلمات عبر التاريخ الاسلامي وحتى الوقت الحاضر.

وفي الوقت، نفسه نحتاج إلى الترسيخ في العقول أن القرآن والذي هو بالنسبة للمسلمين بعامة المصدر الأكثر مرجعية في الإسلام لا يميز

(*) عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» رواه الترمذي «المترجمة»

ضد المرأة بالرغم من الحقيقة المؤلمة والمرة للتاريخ وذلك أن النزعة التراكمية [اليهودية المسيحية الهيلينيّة البدوية و غيرها] التي وجدت في الثقافة العربية الإسلامية للعصور المبكرة للإسلام، قد تخللت التقليد الإسلامي بشكل كبير من خلال رواية الحديث وقوّضت نية القرآن في تحرير النساء من حالة المُلْك المنقول أو المخلوقات الدونية بجعلهنَّ أحراراً ومساويات للرجال.

لا يؤكد القرآن على أن الصلاح والاستقامة هو ذاته في الرجل والمرأة فحسب، بل إنه يؤكد بوضوح و تماسك وثبات على مبدأ تساوي النساء مع الرجال في حقهن الأساسي في تحقيق الجهد الإنساني الكامن الذي يشتركن فيه مع الرجال.

في الحقيقة وعند النظر بطريقة غير بطريركية، فإن القرآن يذهب إلى أبعد من المساواتية. إنه يبدي قلقاً خاصاً تجاه النساء وكذلك تجاه الأشخاص ذوي العوائق والمتضررين. وأبعد من ذلك، إنّه يؤمن وقاية خاصة من أجل حماية وظائف النساء البيولوجية / الجنسية الخاصة كالعمل، الوضع، الرضاعة وتربية الذرية.

إن الله الذي يتكلم من خلال القرآن موصوف بالعدل. وقد أعلن صراحةً في القرآن أنه لن يكون أبداً «ظالماً». وبذلك فان القرآن كونه كلام الله لا يمكن أن يكون مصدراً لانعدام العدالة للإنسان. وانعدام العدالة التي تعرّضت لها النساء لا يمكن النظر إليها على أنها إرادة الله. إن هدف الإسلام القرآني هو تأسيس السلام الذي يمكن فقط أن يوجد في محيط عدل. من المهم هنا ملاحظة أن هناك تشريعات قرآنية تخص تأسيس العدل في سياق العلاقات العائلية أكثر من أي موضوع آخر. هذا يشير إلى الافتراض الضمني في اكثر التشريعات القرآنية والذي هو أنه إذا تمكنت الكائنات الإنسانية من تنظيم بيوتها بعدالة، بطريقة تكون

حقوق كل من بداخلها ـ أطفال، نساء، رجال ـ مصانة، عندها يستطيعون تنظيم المجتمع و العالم على اتساعه بعدالة. وبكلمة أخرى ينظر القرآن للمنزل كعالم صغير للأمة. والمجتمع العالمي يؤكد على أهمية جعله (مكان سلام) من خلال العيش العادل. في حكمي أهمية تطور ما يدعوه الغرب «اللاهوتية الأنثوية»(١٥) في سياق التقليد الإسلامي هي أسمى واعظم اليوم من أجل تحرير ليس فقط النساء المسلمات بل الرجال المسلمين أيضاً من بنى اجتماعية وطرق تفكير غير عادلة و التي تجعل إقامة علاقة ندّ بين الرجال والنساء أمراً مستحيلاً.

إنه من الجيد أن نعلم أن في المئة سنة الأخيرة وجد على الأقل عالِمينْ فعالين هامينّ هما: **قاسم أمين** من **مصر** و**ممتاز علي** من **الهند** اللذان دافعا بإخلاص عن حقوق النساء.

ومع ذلك فإن معرفة هذه الحقيقة تقلل بصعوبة من ألم معرفة أنه حتى في هذا العصر الموصوف بانفجار (ثورة) المعلومات فإن كل النساء عدا حفنة قليلة تنقصهنّ أية معلومة عن اللاهوت الإسلامي.

إنه لمن المثبط للهمة بعمق تأمُّل كم هو قليل عدد النساء المسلمات في عالمنا اليوم اللاتي يمتلكن الأهلية، حتى لو امتلكن الجرأة والالتزام ليشتركن بدراسة علمية لمصادر الإسلام الأولى حتى يشاركن في النقاشات اللاهوتية المتعلقة بقضايا المرأة و التي تحصل في معظم المجتمعات المسلمة المعاصرة. ان اشتراكاً كهذا هو حاجة ضرورية إذا كان يراد للإسلام القرآني الذي يضمن العدالة أن ينبثق ويتفتح في المجتمعات والجماعات المسلمة.

الفصل الثاني

هل تنسجم حقوق الإنسان مع الإسلام؟

قضية حقوق النساء
في المجتمعات الإسلامية

رغم أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يُدعى «عالمي» إلّا أنه كان قد «ظهر بوضوح على امتداد النزعات والاتجاهات التاريخية للعالم الغربي خلال القرون الثلاثة الأخيرة، وساعد علم فلسفي من علوم الإنسان الذي يدرس الحركة الإنسانية الفردانية على تسويغهم»[١]. كانت الافتراضات الأساسية التحتية للإعلان:

١ ـ من أجل طبيعية إنسانية عالمية عامة لكافة الناس.

٢ ـ من أجل كرامة الفرد.

٣ ـ من أجل نظام اجتماعي ديمقراطي[٢].

في العقود التي تلت الإعلان أصبح مصطلح «حقوق الإنسان» قسماً داخلياً لكلّ من الأحاديث السياسية والشعبية وخاصة بين الأشخاص الغربيين وذوي الثقافة الغربية. معظم هذه الأحاديث أصبحت مؤخراً جداً ذات تعابير دنيوية بشكل كبير.

في الواقع، إنه لمن المفروض بكثرة بالإضافة إلى كونه مُقرَّراً من قبل كثير من المدافعين عن حقوق الإنسان في البلدان الغربية وغير الغربية

(بما فيها العديد من البلدان الإسلامية)، أنه يمكن لحقوق الإنسان أن توجد فقط في محتوى دنيوي وليس في داخل هيكل الدين.

إن ما يُشكِّل أساس الموقف، أن مبدأ حقوق الإنسان هو دنيوي أصولياً، ولذلك فهو خارج وحتى مناقض للرؤية العالمية للدين وهي ـ طبعاً ـ رؤية محددة للدين بعامة، أو لأديان معينة.

في البلدان الإسلامية ـ كالباكستان مثلاً ـ فإنه غالباً ما يُلاحظ من قبل أنصار العقلية الدنيوية لحقوق الإنسان، أنه من غير المُجدي الكلام عن حقوق الإنسان في الإسلام، لأنه كتقليد ديني فقد دعم الإسلام قيم وبُنى غير منسجمة مع الافتراضات التي تؤسس الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

ما يستدعي الإشارة إليه عند هؤلاء المؤيدين للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، بأنه النموذج الأعلى والوحيد لدستور الحرية والمساواة لكل المخلوقات الإنسانية، هو إعطاء الأصل والاتجاه الغربي لهذا الإعلان، الشمولية للافتراضات التي أسس عليها ـ كأقل ما يكون ـ والتي هي موضع شك وتساؤل. علاوة على ذلك فإن عدم الانسجام المزعوم بين مبدأ حقوق الإنسان والدين بعامة أو أديان خاصة كالإسلام، يحتاج للفحص بطريقة عادلة.

الإدراك الغربي للإسلام والمسلمين، وصورة النساء المسلمات في المجتمعات الغربية:

منذ السبعينات، أصبح هناك اهتمام متنامٍ في الغرب بالإسلام والمسلمين. لكن تركز الكثير من هذا الاهتمام على مواضيع كـ «النهضة الإسلامية»، «الأصولية الإسلامية»، «قضية سلمان رشدي» و«النساء في الإسلام» بدلاً من فهم تعقّد وتنّوع «عالم الإسلام».

ليس فقط اختيار المواضيع التي مالتْ إلى إثارة وتحريض استجابات انفعالية عاطفية قوية عند كل من الغربيين والمسلمين، لكن أيضاً الطريقة التي تمّ بها تقديم هذه المواضيع بشكل عام من قبل الإعلام الغربي والمنشورات الشائعة تستدعي الشك في التحريض الذي يجعل الاهتمام الغربي المُختار في الإسلام والمسلمين، عميقاً وجوهرياً.

إنه من الصعب رؤية هذا الاهتمام كمُحرِّض إيجابي يعطي هذا التجسيم السلبي الواسع الانتشار للإسلام والمسلمين في الغرب. بالرغم من أن كثيراً من الأمريكيين لم يعيروا أي انتباه جدي للإسلام أو المسلمين حتى الحظر النفطي العربي عام ١٩٧٣، أو الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، فإن الدعاية ضد الإسلام والمسلمين ليست شيئاً جديداً في الغرب. إنها قديمة قدم الفصل الأول من التاريخ الإسلامي، عندما بدأ الإيمان الجديد ينتقل إلى الأقاليم المشغولة بشكل كبير بالمسيحيين:

فدانتي Dante شاعر القرون الوسطى الشهير رأى نبي الإسلام كـ مُقسِّم للعالم المسيحي وخصَّه بالمنزلة السفلى من النار لـ «خطيئته» الفاحشة.

والقديس **توما الأكويني** Thomas Aquinas الفيلسوف المدرسي الأكثر تميزاً الذي كان يدين بكثير من معرفته لمفكري إسبانيا المسلمة، وصف الإسلام بأنه لا شيء سوى بنية ملائمة لشهوة محمد[٣].

إن الظلال البعيدة المدى التي طُرِحت من قبل أصوات مسيحية قوية مثل دانتي و توما الأكويني يمكن أن تُلمح في محاضرة توماس كارليل Thomas Carlyle التاريخية في: «البطل كنبي، محمد: الإسلام» في سلسلة معنونة: «في الأبطال: عبادة البطل والبطولة في التاريخ» والتي كُتبت في منتصف القرن التاسع عشر، حثَّ كارليل تابعيه المسيحيين على نبذ «فرضياتنا المتداولة التي تؤكد أن محمد كان دجالاً ماكراً ومجسّداً للكذب وأن دينه هو مجرد شعوذة وحماقة»[٤].

بالنظر إلى ذخيرة الصور السلبية المُرافقة للإسلام والمسلمين في «اللاوعي الجمعي» للغرب، فإنه من غير المُفاجئ أبداً أنه ومنذ انهيار الاتحاد السوفياتي أصبح عالم الإسلام العدو الجديد والذي هو حتى أكثر إبهاماً وغموضاً وعناداً من السابق.

التصوير الروتيني للإسلام كدين انتشر بالسيف ووصفه لـ «الحرب المقدسة» وللمسلمين كبرابرة ومتخلفين مسعورين ومتعصبين سريعي الاستثارة وعنيفين، قاد مؤخراً إلى زيادة مرعبة في «سحق المسلمين» ــ شفهياً وجسدياً ونفسياً ــ في عدد من البلدان الغربية. إن التعاطف في الغرب تجاه النساء المسلمات، في وسط الضغينة والبغض الكبيرين تجاه الإسلام والمسلمين بعامة، يظهر على مستوى سطحي كتناقض مدهش. إذ أليست النساء المسلمات أيضاً نصيراتٌ للإسلام؟ أليست النساء المسلمات هنّ أيضاً ضحايا لـ «سحق المسلمين»؟

قليل فقط من المسلمين يستطيعون نسيان الحرق الوحشي للبنات التركيات المسلمات من قبل عصابات ألمانية أو الاغتصاب عديم الرحمة للنساء المسلمات من قبل الجنود الصرب.

النساء المسلمات وحقوق الإنسان: المأزق غير الواضح

منذ أن نشأت الفكرة الحديثة عن حقوق الإنسان في الغرب كمحتوى دنيوي وجد المسلمون بعامةـ والنساء المسلمات بخاصةـ أنفسهم في مأزق، عندما يلقّنون أو يشاركون في نقاش عن حقوق الإنسان سواء في الغرب أو في المجتمعات الإسلامية. انطلاقاً من خبرة حياتهن تشعر معظم النساء المسلمات اللواتي أصبحن مؤيدات أو فاعلات في حقوق الإنسان، بأنه واقعياً، كل المجتمعات الإسلامية

تضطهد النساء من المهد إلى اللحد. هذا يدفع بالعديد منهن لينصرفن بعمق عن الحضارة الإسلامية بعدة طرق.

هذا الإحساس المرّ بالانصراف يقود في العديد من المرات إلى الغضب والمرارة تجاه النظام الأبوي للتفكير والبُنى الاجتماعية المسيطر في معظم المجتمعات الإسلامية.

تجد النساء المسلمات غالباً دعماً وتعاطفاً في الغرب، طالما يُرَون كمتمردات ومنحرفات في عالم الإسلام. لكن العديد منهنّ يُدركن إن عاجلاً أم آجلاً أنهنّ، مع ما يجدنَ من صعوبات جدية في الحضارة الإسلامية، إلاً أنهنّ أيضاً غير قادرات لعدة أسباب على التماثل مع حضارة الغرب الدنيوية. هذا الإدراك يقودهنّ إلى الشعور ـ على الأقل لبعض الوقت ـ بأنهن وحيدات ومنعزلات.

لقد رُكزت عناية كبيرة في الإعلام الغربي والمنشورات على الحالة المؤسفة للنساء المسلمات اللواتي هنّ «مسكينات ومضطهدات» بطرق مرئية أو غير مرئية. بينما لم يوجّه أي اهتمام للمأساة العميقة والصدمة اللتين تعاني منهما نساء اليوم المسلمات الواعيات بأنفسهن، واللواتي يجاهدن لجعل دينهنّ يتطابق مع الاستقلال الشخصي في وجه تصّلب الحضارة الإسلامية من جهة وإمبريالية الثقافة الغربية الدنيوية من جهة أخرى.

مصادر العُرف الإسلامي

إنه لمن المفيد، قبل التوجه والانكباب على قضية حقوق الإنسان في الإسلام، التوضيح أن التقليد الإسلامي ـ كبقية معظم التقاليد الدينية ـ لا يتألف أو يُشتق من مصدر واحد. إذا سُئل معظم المسلمين عن تلك المصادر فإن من المحتمل أن يشيروا إلى اكثر من واحد من البنود التالية:

ـ القرآن أو كتاب الوحي الذي يؤمن المسلمون بأنه كلام الله نُقلَ بواسطة الملك جبريل إلى النبي محمد.

ـ السُّنة أو التقاليد العملية للنبي محمد (ص).

ـ الحديث أو الأقوال الشفهية المنسوبة للنبي محمد (ص).

ـ الفقه.

ـ الشريعة أو مجموعة القوانين التي تُنظِّم المظاهر المختلفة لحياة المسلمين.

وإذ يُشار إلى هذه المصادر تراكمياً بـ «التقليد الإسلامي»، إلّا أنها ليست متماثلة، أو لا تُعتبر ذات وزن متساوٍ.

من ضمن كل مصادر التقليد الإسلامي وأهمها دون شك، القرآن الذي ينظر إليه المسلمون عامة، بأنه المصدر الأول والأكثر ثقة للإسلام القاعدي. فهو بالنسبة للعديد من المسلمين الوثيقة العظمى لحقوق الإنسان، ويخصص قسماً كبيراً من اهتمامه من أجل تحرير المخلوقات الإنسانية من استرقاق وعبودية التقليدية العرفية والفاشستية (دينية، سياسية، اقتصادية،...)، والعصبية القبلية والتمييز العرقي والتمييز الجنسي، أو أي شيء آخر يمنع أو يكبح البشر من جعل رؤية القرآن لقدر الإنسانية والمتضمن في البيان الكلاسيكي «وأن إلى ربك المنتهى»[٥]، واقعاً.

في القسم المعنون «الحقوق العامة» والذي سيتبع لاحقاً، يُعطي شرحاً للتأكيد القرآني على الحقوق الأصلية التي يجب أن تمتلكها كل المخلوقات الإنسانية لأنه مُتعمِّق جداً في إنسانيتنا، وإنكارها أو انتهاكها مساوٍ لإنكارنا وتجريدنا مما يجعلنا بشراً.

من منظور القرآن فإن هذه الحقوق جاءت إلى الوجود. مع مجيئنا، خلقها الله كما خلقنا من أجل إمكانية تحقيق إنسانيتنا الكاملة. الحقوقُ

المخلوقة أو المعطاة من الله لا يمكن إبطالها من قبل أي حكم دنيوي زائل أو بواسطة إنسانية، ويجب أن تمارس فهي أزلية وثابتة حيث أن كل ما يفعله الله إنْ هُوَ «إلا بالحق»(٦).

حقوق عامـة

أ ــ حق الحياة:

يدعم القرآن قداسة الحياة الإنسانية وقيمتها المطلقة:

﴿... ولاتقتلوا النفسَ التي حرَّم اللهُ إلاّ بالحق، ذلكمُ وصاكُمُ به لعلكم تتقون﴾ (الانعام: ١٥١).

ويشير أنَّ حياة كل فرد قابلة للمقارنة في الجوهر مع حياة الجماعة بأكملها ولذلك يجب أن تُصان وتُعامل بالعناية القصوى:

﴿... من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنّما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً...﴾ (سورة المائدة: ٣٢).

ب ــ حق الاحترام:

يعتبر القرآن أن كل المخلوقات الإنسانية تستحق الاحترام لأنها من بين جميع الخلق قبلت وحدها «الأمانة» وحرية الإرادة:

﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحمَلْناهم في البرّ والبحر...﴾

(سورة الاسراء: ٧٠).

﴿إنّا عرضْنا الأمانة على السماواتِ والأرض والجبالِ فأبيْنَ أنْ يحمِلنها وأشفقن منها وحملها الانسانُ...﴾ (سورة الأحزاب:٧٢).

تستطيع المخلوقات الإنسانية ممارسة حرية الإرادة لامتلاكها القدرة العقلية التي تميزها عن باقي المخلوقات[٧]. ومع أنه من الممكن للمخلوقات الإنسانية أن تصبح «**أسفل السافلين**»، يُصرِّح القرآن أنها خُلقت «**في أحسن تقويم**» بامتلاكها المقدرة على التفكير وعلى التمييز بين الخطأ والصواب، وعلى فعل الخير وتجنب الشر:

﴿لقد خلقنا الانسانَ في أحسن تقويم. ثم ردَدْناهُ أسفَلَ سافلين. إلاّ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات فلهم أجرٌ غيرُ ممنون﴾ (سورة التين: ٤،٥).

وبالتالي، وبسبب (التعهد) المحتوى في كونها إنسان، أي كونها خليفة الله في الأرض، فإن الحركة الإنسانية لكل المخلوقات الإنسانية يجب أن تُحترم وتُعتبر غاية في ذاتها.

ج ــ حق العدالة:

يؤكد القرآن تأكيداً كبيراً على حق نَشْدِ العدالة وعلى واجب فعل العدالة. ويستخدم مفهومين في سياق الكلام عن العدالة: «**العدل**» و «**الإحسان**» كلاهما مفروضان وكلاهما متعلقان بفكرة «**التوازن**» لكنهما ليسا متطابقين في المعنى

﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامِين للهِ شُهداء بالقسطِ ولايجْرِ منّكُم شنآنُ قوم على ألّا تعدِلوا أَعْدِلوا هو أقرب للتقوى...﴾ (المائدة: ٨).

يُعرَّف العدل من قبل A.A.A. Fyzee وهو عالم إسلامي معروف بـ «أنه المساواة لا أكثر ولا أقل». ولشرحِ هذا المفهوم كتب فايزي: «..في محكمة العدل يجب اعتبار ادعاء كلاً من الطرفين بشكلٍ متساوٍ وبدون ضغط غير ملائم يُفرض على أحد الطرفين. يُعرَّف العدل بالتوازن في صيغة الميزان الذي تتوازن كفتاه بشكلٍ متساوٍ»[٨].

وُصف العدل بتعبير مشابه من قبل مترجم القرآن الشهير **أبو الكلام آزاد** الذي قال: «ليس العدل سوى تجنب الإفراط، لا ينبغي أن يكون هناك زيادة أو نقصان لذلك كان استخدام الميزان كرمز للعدل»(٩) خشية أن يحاول أحد ما أن يقوم بأفعال كثيرة زائدة أو ألا يفعل إلا القليل. يشير القرآن إلى أن الكائن الإنساني لايحمل حمل غيره، ولا يحقق أي شيء دون أن يكافح من أجله»:

﴿ألاَّ تزِرُ وازرةٌ وزْرَ أُخرى * وأن ليس للإنسان إلاَّ ماسعى﴾ (النجم: ٣٨ ـ ٣٩)

وحول أهلية الفضيلة الفردية في قسم «العدل»، يُعلِّم القرآن أن الأهلية لا تتحقق بنسب أو بجنس أو بثروة أو بنجاح دنيوي أو بدين لكن بالصلاح، الذي يتألف من كلا الأمرين: «الإيمان» الصحيح و «فعل» العدل (الأعمال)(١٠).

ويميز القرآن أكثر من ذلك، بين المؤمنين السلبيين وبين هؤلاء الذين يجاهدون في سبيل الله، مشيراً إلى أنه بالرغم من أن جميع المؤمنين قد وعدهم الله خيراً لكن المجاهدين سيعلُّون فوق السلبيين القاعدين:

﴿لايستوي القاعدونَ من المؤمنين غيرُ أُولي الضررِ والمجاهدونَ في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً وكلًّا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ (النساء: ٩٥)

تماماً وكما تقتضي روح «العدل» أن يؤخذ بالحسبان الأهلية الخاصة في أمر المكافأة، فهي كذلك تقتضي تماماً أن يؤخذ بالحسبان الظروف الخاصة في أمر العقاب. على سبيل المثال في جرائم عدم العفة يقضي القرآن بعقوبات متماثلة لكلٍ من الرجل والمرأة إذا تمَّ البرهان على ذنبهما.

﴿الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحدٍ منهما مائة جَلْدةٍ
ولاتأخذكم بهما رأفةٌ في دين الله...) (النور:٢)

﴿ومن لم يستطع منكم طوْلاً أن ينكِحَ المُحصنّاتِ
المؤمنات فمن مامَلكتْ أيمانكم من فتياتكم المؤمناتِ
واللهُ أعلمُ بإيمانكم بعضكُم من بعضٍ فانكحوهُنَّ
بإذنِ أهلهنَّ وآتوهُنّ أُجورُهُنَّ بالمعروفِ محصناتٍ
غير مُسافحات ولامُتخّذاتِ أخدانٍ فإذا أُحصنَّ فإن
أتينَّ بفاحشةٍ فعليْهن نصْفُ ما على المُحصّنات من
العذاب ذلك لمن خشي العنَتِ منكم وأن تصبروا
خيرٌ لكم والله غفورٌ رحيم﴾ (النساء: ٢٥)

﴿يانساء النبي من يأتِ منكُنَّ بفاحشةٍ مُبَيّنةٍ يُضاعف
لها العذابُ ضعفينِ وكان ذلك على الله يسيرا﴾
(الاحزاب: ٣٠)

لكن القرآن يميز بين النساء من طبقات اجتماعية مختلفة: فمن أجل الجرم ذاته تتلقى المرأة الأَمة النصف، وزوجات النبي ضعف العقاب المفروض على المرأة المسلمة «الحرة». في إقامة مثل هذا التمييز، وبينما يدعم القرآن مستويات أخلاقية عليا خاصة في حالة زوجات النبي اللواتي لأفعالهن أهمية أساسية في المجتمع، فإنه يعكس تعاطف الله مع النساء الإماء المضرورات اجتماعياً.

ومع أن القرآن يأمر باستمرار بـ «العدل»، إلا أنه يذهب أبعد من هذا المفهوم، يذهب إلى «الإحسان» والذي يعني أدبياً «إعادة التوازن» بالتعويض عن الفقدان أو العجز والنقص[١١].

إنه لمن الضروري من أجل فهم هذا المبدأ، فهم طبيعة المجتمع أو الجماعة المثالية (الأمة) المتُصَورة من قبل القرآن. إن كلمة (أمة) تأتي من الجذر (أمّ). إن رموز الأم والحب الأمومي مرتبطة أيضاً في صفتين من

أكثر ما يميز الله وهما «رحيم» و «رحمن» وكلاهما مشتق من الجذر (رَحِمْ).

إن الأمة المثالية تعتني بأعضائها جميعهم كما تعتني أم مثالية بجميع أطفالها، مع الأخذ بعين الاعتبار كونهم غير متساوين جميعهم وأن لكل منهم احتياجاته المختلفة. وبينما نجد إعطاء عناية غير مستحقة لأي طفل تُعدُّ غير عادلة، فإن أماً تعطي طفلاً «معاقاً» أو مضروراً أكثر مما تعطي أطفالها الآخرين لا تتصرف على نحو غير عادل إنما تقوم بما يُمثِّل روح «الإحسان»، وذلك بالمساعدة في التعويض عن النقص لدى الطفل الذي يحتاج مساعدة خاصة في التعامل مع متطلبات الحياة. ولذلك فـ «الإحسان» يُظهر تعاطف الله مع الجزء المضرور من المجتمع الإنساني (مثل: النساء، اليتامى، الرقيق، الفقراء، العاجزين، والأقليات).

د ــ حق الحرية:

كما وُضِّح سابقاً، يهتم القرآن بعمق بتحرير الكائنات الإنسانية من أي نوع من أنواع العبودية. ويوضِّح القرآن ويؤكد ميل الإنسان تجاه الدكتاتورية والاستبداد، فهو يقول: في (السورة ٣: آل عمران: ٧٩)

﴿ما كان لبشرٍ أن يؤتيَهُ الله الكتابَ والحُكمَ والنبوَّة
ثم يقولَ للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن
كونوا ربَّانيين بما كنتم تُعلِّمون الكتاب وبما كنتم
تدرسون﴾ (آل عمران: ٧٩).

إن عرف عبودية الإنسان مهم جداً بالطبع في مفهوم حرية الإنسان. كان الاسترقاق منتشراً بشكل واسع عند العرب في وقت مجيء الإسلام وكان اقتصاد العرب يعتمد عليه. لم يكتفِ القرآن بالتأكيد على وجوب معاملة الرقيق بطرق عادلة وإنسانية فقط، بل حثَّ باستمرار على تحرير العبيد:

﴿لايؤاخذكم الله باللغوِ في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتُّم الأيمانِ فكفّارَتُه إطْعامُ عَشَرةِ مساكينَ من أوْسط ماتُطعِمون أهلكم أو كسوتهم أو تحريرُ رَقَبَةٍ...﴾ (المائدة:٨٩)

﴿والذين يُظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة﴾ (المجادلة:٣) إضافة إلى (التوبة ١٧٧) (النساء:٩٢) و(التوبة: ٦٠) و(النور:٣٣).

كما يُعلن القرآن وجوب إطلاق سراح أسرى الحرب «إما منًّا أو بفدية»:

﴿فاذا لقيتُمُ الذين كفروا فضربَ الرِّقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاقَ فإما منّاً بعدُ وإمّا فداءً حتى تضع الحربُ أوزارها...﴾ (سورة محمد:٤).

إن القرآن عملياً بإعلانه عن وجوب إطلاق سراح الأسرى، يُلغي الاسترقاق حيث أن «معظم العبيد ـ رجال ونساء ـ كانوا أسرى حرب»[١٢]. إن عدم إعلان القرآن صراحة إلغاء الرق لا يستتبع استمراريته، خاصة بالنظر إلى الطرق العديدة التي نشدها القرآن للتخلص من هذا الشر المطلق.

إن كتاباً لا يعطي ملكاً أو نبياً الحق في طاعةٍ مطلقةٍ من كائن إنساني آخر، من غير الممكن أن يجيز العبودية بأي معنى من معاني الكلمة. يقع الضمان الأكبر للحرية الشخصية في القرار القرآني أنه لا أحد غير الله يستطيع حدّ الحرية الإنسانية[١٣]. وفي التصريح إن «الحكم إلا لله»[١٤] كما أُشير إليه من قبل خالد م. اسحق، القانوني الباكستاني البارز إذ يقول:

«يُعطي القرآن للمعارضة المتصفة بالمسؤولية حقوقاً أساسية. في التطبيق العملي لاتستطيع لا السلطة التشريعية ولا السلطة

التنفيذية طلب طاعة عمياء... فالنبي، ورغم كونه متلقٍ للوحي الإلهي، كان مطالباً باستشارة المسلمين في الشؤون العامة. يقول الله في مخاطبة النبي:

﴿...وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله
إن الله يحب المتوكلين﴾ (آل عمران: ١٥٩).

بما أن مبدأ الاستشارة المتبادلة «شورى» إلزامياً[١٥] فإن المسلم بالإضافة إلى كونه مسؤولاً، يملك حقاً أساسياً في أن يشارك في مظاهر عدة من حياة الجماعة قدر الإمكان. حينما يصرح القرآن في (السورة ٢: البقرة ٢٥٦): «لا إكراه في الدين»[١٦]، فهو بذلك يضمن الحرية في الدين والعبادة. هذا يعني تبعاً لتعاليم القرآن أن غير المسلمين الذين يقطنون في مناطق مسلمة لهم الحرية في إتباع تقاليد إيمانهم دون خوف أو إزعاج. يصرح عددٌ من نصوص القرآن بوضوح أن مسؤولية النبي محمد (ص) هي نقل رسالة الله وليس إكراه أي أحد على الإيمان.

﴿ولو شاء ربُّكَ لآمن من في الأرضِ كُلُّهم جميعاً
أفأنـت تُكرِهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾

(سورة يونس ٩٩)

﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إِنْ عليك
إلا البلاغ...﴾ (الشورى: ٤٨)

﴿فان تولوا فإنما عليك البلاغُ المبين﴾

(النحل: ٨٢)

إن حق ممارسة الاختيار الحر في أمر الإيمان ظاهر دون غموض في القرآن:

﴿وقُل الحقُّ من ربّكم فمن شاءَ فليؤمِن ومن شاءَ
فلْيَكْفُر..﴾ (الكهف: ٢٩)

كما وأن القرآن يصرّح أيضاً بوضوح أن الله سيحاسب المخلوقات الإنسانية ليس على أساس إعلان إيمانهم لكن على أساس إيمانهم وصلاح سلوكهم:

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين
من آمن بالله واليوم الآخر وعمِلَ صالحاً فلهم أجرهم
عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

(السورة٢: البقرة ٦٢).

وهذا ما تصرح به أيضاً الآية ١٠٨ من سورة الأنعام.

يظهر القرآن الحق في الحرية الدينية ليس فقط في حالة غير المسلمين ممن يؤمنون بالله لكن أيضاً في حالة الآخرين ممن لايؤمنون بالله شريطة ألا يعتدوا على المسلمين:

﴿ولاتسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله
عدواً بغير علم...﴾ (الأنعام: ١٠٨)

إنه لمن الضروري ونحن في صدد مفهوم حق الإنسان في ممارسة الحرية الدينية أن نذكر أن قول القرآن: ﴿لا إكراه في الدين...﴾ (البقرة: ٢٥٦) لا ينطبق فقط على غير المسلمين بل أيضاً على المسلمين. وبينما أن هؤلاء الذين يتخلون عن الإسلام بعد اعتناقه ومن ثم التورط بـ «فعل حرب» ضد المسلمين يجب معاملتهم كأعداء باغين، فإن القرآن لا يفرض عقاباً على الذين لم يعتنقوه. إن القرار الذي يتعلق بقدر الشخص النهائي في الآخرة يبقى مع الله.

إن حق الحرية يتضمن حق الحرية في قول الحقيقة. والمصطلح القرآني للحقيقة هو «الحق» والذي هو أيضاً من أهم الأسماء المنسوبة لله. إن مناصرة الحقيقة هو حق ومسؤولية يجب ألا يتخلى عنها المسلم في وجه أكبر خطر أو صعوبة:

﴿يأأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسطِ شهداءَ الله
ولو على أنفسكم...﴾ (النساء: ١٣٥)

وفي الوقت الذي يأمر القرآن المؤمنين بالشهادة بالحق فإنه أيضاً يرشد المجتمع إلى عدم إيذاء الأشخاص الشاهدين بذلك[١٧].

هـ ــ حق اكتساب العلم (المعرفة):

يشدد القرآن بقوة على أهمية تحصيل العلم كون العلم (المعرفة) هو نواة الرؤية الإسلامية للعالم. ويظهر ذلك في سورة العلق التي يعتقد المسلمون أنها أول ما تلقى النبي محمد من وحي:

﴿... اقرأ وربُّك الأكْرَمْ، الذي علّم بالقلم. علّم
الإنسان مالم يعلم﴾ (سورة العلق: ٣ ــ ٥)

وبالسؤال بلاغياً عن تساوي من هم بلا علم مع ذوي العلم[١٨] يحضّ القرآن المؤمنين على الدعاء من أجل زيادة العلم: ﴿**وقل ربِّ زدني علماً**﴾ (طه: ١١٤). إن أشهر دعاء للنبي محمد هو ذلك الدعاء الذي كان يسأل فيه الله أن يمنحه علم طبيعة الأشياء، ومن أشهر أحاديثه في طلب العلم: «اطلبوا العلم ولو في الصين».

تبعاً لمنظور القرآن، فإن العلم هو شرط الخلق من أجل عالم عادل يسود فيه سلام حقيقي موثوق. ويشدد القرآن على السعي في سبيل التعلم حتى في وقت الحرب[١٩].

و ــ حق الإعالة (القوت):

لقد أشير في (السورة ١١: هود) أن كل مخلوق حي يعتمد من أجل قوته على الله. هناك مفهوم أساسي في القرآن ــ والذي يشكل أساس النظام الاجتماعي الاقتصادي السياسي الإسلامي ــ يقوم على أن

ملكية أي شيء تعود إلى الله وحده وليس إلى أي شخص آخر. وبما أن الله هو خالق الكون، فإن لكل مخلوق الحق في المشاركة فيما يعود لله[٢٠]. هذا يعني أن لكل كائن إنساني الحق في وسائل العيش، وهؤلاء الذين يمسكون بالقوة الاقتصادية والسياسية ليس لهم الحق في حرمان آخرين من ضرورات الحياة الأساسية باختلاس أو إساءة استعمال المصادر التي خُلقت من قبل الله من أجل منفعة الإنسانية عامة.

ز ــ حق العمل:

تبعاً لتعاليم القرآن، فإن لكل رجل وامرأة الحق في العمل، سواء أكان عملاً مربحاً أو خدمة تطوعية. وتعود ثمار العمل لذلك الذي عمل من أجلها، بغض النظر عن كونه رجلاً أو أمرأة:

﴿...للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ (االنساء: ٣٢).

ح ــ حق الخصوصية:

يظهر القرآن الحاجة إلى الخصوصية كحقٍ إنساني، ويضع أحكاماً تحمي حياة الفرد في منزله من تطفُّل غير ملائم من الداخلين والخارجين[٢١]:

﴿ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظّنّ إن بعض الظنّ إثمٌ ولا تجسَّسوا ولايغتب بعضُكم بعضاً أيُحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتُموه...﴾

(سورة الحجرات:١٢)

كما يمكن أن نجد ذلك في آيات كثيرة من القرآن كما في: (سورة النور: ٢٧ ــ٢٨، ٥٨)، (سورة الأحزاب: ٥٣) على سبيل المثال.

ط ــ حق الحماية من الافتراء والغيبة والسخرية:

يُظْهِر القرآن حق الكائنات الإنسانية في الحماية من الافتراء وتشويه السمعة والتهكم والألقاب المهينة والغيبة:

﴿ياأيها الذين آمنوا لايسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولانساءٌ من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهنَّ ولاتلْمِزوا أنفسَكم ولاتنابزوا بالألقاب بئس الإسمُ الفُسُوقُ بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾. (سورة الحجرات آية ١١ ــ ١٢)

ويصرِّح أيضاً بأنه لا يجب قذف أي شخص على أساس ذنب مفترض، وأن هؤلاء المتورطون في تجارة فضائح خبيثة وحقودة سيعاقبون بشكل ثقيل الوطأة في الحياة الدنيا وفي الآخرة:

﴿إن الذين يحبون أنْ تشيعَ الفاحشةَ في الذين آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرةِ والله يعلم وأنتم لاتعلمون﴾ (سورة النور آية ١٩)

و(النساء ١٤٨ ــ ١٤٩)

ي ــ حق تطوير حس الفرد الجمالي والاستمتاع بالهبات التي خلقها الله:

وهذا ماأشار إليه محمد أسد بقوله: «أن كل الأشياء الجميلة والجيدة في الحياة ــ أعني تلك التي لم تمنع بوضوح ــ مشروعة لكل المؤمنين. لذا فإن القرآن يُدين ضمناً كل صيغ التقشف ونكران الحياة، ونكران الذات وكبح الشهوات وإماتة الجسد»[٢٢]. في الواقع إنه يُصرِّح ضمناً بأن الحق في تطوير حس الفرد الجمالي الذي يُمكنه من تقدير الجمال في كل صيغه، والحق بالاستمتاع بما زود الله به طبيعة النوع الإنساني هما متجذران عميقاً في رؤية القرآن لتأكيد الحياة:

﴿قُلْ من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيِّباتِ من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً...﴾ (الاعراف:٣٢)

ك ــ حق ترك الفرد لوطنه تحت ظروف جائرة:

تبعاً لتعاليم القرآن فإن ولاء المسلم المطلق هو لله وليس لأي إقليم، ومن هذا المنطلق قرر النبي محمد (ص) من أجل إكمال رسالته النبوية ترك مكان ولادته مكة وهاجر إلى المدينة. هذا الحدث ـ الهجرة ـ له أهمية روحية وتاريخية كبيرة لدى المسلمين الذين دعوا إلى الرحيل من مساقط رؤوسهم ـ أماكنهم الأصلية ـ والتي أصبحت مقر الشر والاضطهاد إلى حيث يستطيعون إكمال واجباتهم والتزاماتهم أمام الله من أجل تأسيس العدالة:

﴿إن الذين توفّاهم الملائكةُ ظالمي أنفُسهم قالوا فيم كنتم، قالوا كنا مُستضْعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها...﴾

(النساء: ١٠٠)

﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرضِ مُراغماً(*) كثيراً وسَعَةً ومن يخرج من بيته مُهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموتُ فقد وقع أجرُهُ على الله...﴾ (النساء: ١٠)

ل ــ حق «الحياة الكريمة»:

يدعم القرآن حق الإنسان ليس في الحياة فقط بل في «حياة كريمة» وتتألف هذه الحياة الكريمة من عناصر عدة، وتصبح ممكنة عندما يعيش

(*) مراغماً كثيراً: أمكنة كثيرة للهجرة.

الإنسان في محيط عادل. تبعاً لتعاليم القرآن فإن العدالة شرط أساسي للسلام، والسلام شرط أساسي لتطور الإنسان.

في مجتمع عادل كهذا الذي يدعو إليه القرآن، يمكن ممارسة كل حقوق الإنسان المذكورة سابقاً ودونما صعوبة. وثمة كذلك حقوق أساسية أخرى مثل الحق في مكان إقامة آمن، حق حماية ممتلكات الفرد، حق حماية اجتماعات الفرد، حق التنقل بحرية، حق الاستقلال الاجتماعي القضائي للأقليات، حق حماية الأماكن المقدسة وحق العودة إلى مركز الفرد الروحي[٢٣].

حقوق النساء:
المُثل القرآنية في مقابل التطبيق المسلم

لا يضجر الرجال المسلمون من تكرار أن الإسلام قد أعطى للمرأة حقوقاً أكثر مما أعطاها أيٌّ من الأديان الأخرى. بالتأكيد إذا كان المقصود بـ «الإسلام» (الإسلام القرآني) فإن الحقوق المُعطاة للمرأة هي حقاً مؤثرة. فالنساء لا يشاركن في كل «الحقوق العامة» المذكورة سابقاً فقط بل هن موضع لكثير من الاهتمام الخاص في القرآن.

إن ما يُشكل الأساس لكثير من التشريع القرآني المتعلق بقضايا النساء، هو إدراك أنَّهنَّ كنّ مضرورات في التاريخ لذا فالحاجة تستدعي أن تطبق العدالة من أجلهن من قبل الأمة المسلمة. لكن ولسوء الحظ فإن النزعة [اليهودية ـ المسيحية ـ الهيلينية والبدوية..] المتراكمة التي وجدت في الحضارة الإسلامية ـ العربية في القرون المبكرة للإسلام تخللت التقليد الإسلامي وقوضت نية وسعيَ القرآن في تحرير النساء من أوضاع المُلْك المنقولِ والمخلوقات الدونية وجعلهن حرّات ومساويات للرجال.

إن عودةً للتاريخ والحضارة الإسلامية تُظهر كثيراً من الفترات التي كانت فيها النساء عرضة لأشكال متعددة من الاضطهاد وعدم العدالة، غالباً باسم الإسلام.

وبينما يَظْهَرُ القرآن، وبسبب من موقعه الحامي تجاه كل طبقات البشر المضطهدة والمُداسة بالأقدام، ذا نفوذٍ بطرق عديدة لصالح النساء، فإن العديد من تعاليمه المتعلقة بالنساء قد استخدمت بدلاً عن ذلك بشكل معكوس ضدّهنّ، في مجتمعات مسلمة بطريركية. تبدو المجتمعات المسلمة بشكل عام مهتمة بمحاولة التحكم والسيطرة على أجساد النساء وشؤونهنّ الجنسية أكثر بكثير من اهتمامها بحقوقهن الإنسانية الأخرى. إن العديد من المسلمين عندما يتكلمون عن حقوق الإنسان فإنهم إما لا يتكلمون عن حقوق النساء إطلاقاً(٢٤) أو يهتمون بشكل رئيسي بكيفية صيانة طهارة وعفة النساء(٢٥) [من الواضح أنهم ليسوا قلقين على صيانة عفة الرجال] . النساء هنّ هدف الانتهاك الأكثر خطورة لحقوق الإنسان الذي يظهر في المجتمعات الإسلامية بشكل عام. يقول المسلمون بفخرٍ عظيم أن الإسلام ألغى وأد البنات. هذا صحيح لكن من الضروري ذكر أن إحدى أكثر الجرائم شيوعاً في عدد من البلدان الإسلامية (مثلاً الباكستان) هي جريمة اغتيال النساء من قبل أزواجهن وتدعى جرائم الشرف، وهي في الواقع وضيعة إلى أقصى حدّ وتستخدم بكثرة لتمويه جرائم أخرى.

يجري التمييز ضد الأطفال الإناث منذ لحظة الولادة حيث من المعتاد في المجتمعات الإسلامية النظر إلى الابن كهبة وإلى الابنة كمحنة من الله. فالابن يكون مناسبة للاحتفال، بينما الابنة تدعو للمؤاساة إن لم يكن للتفجّع. معظم البنات يُزوَّجن وهنّ ما زلن قاصرات، رغم أن الزواج في الإسلام هو عقد ويقتضي موافقة الطرفين المتعاقدين البالغين. وبالرغم من أن معظم التشريع القرآني يهدف إلى حماية حقوق النساء في سياق الكلام عن الزواج(٢٦):

﴿ياأيها الذين آمنوا لايَحلُ لكم أن ترثوا النساء كرهاً
ولاتعضلوهن لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن إلا أن يأتين
بفاحشةٍ مبينة وعاشروهن بالمعروف...﴾

(النساء: ١٩)

بالرغم من ذلك فان النساء لايستطعن أن يدّعين المساواة مع أزواجهن. وفي الواقع يُنظر إلى الزوج كبوابة زوجته إلى الجنة أو الجحيم والحكم على قدرها النهائي.

إن إمكانية وجود مثل هذه الفكرة داخل إطار الإسلام ـ الذي يرفض نظرياً فكرة وجود أي وسيط بين المؤمن والله ـ تمثل سخرية عميقة ومأساة عظيمة. مع أن القرآن يقدم فكرة ما ندعوه اليوم طلاق «بدون عيب» ولا يعطي أية أحكام معاكسة حول الطلاق:

﴿وإذا طلّقتم النساء فبلَغْن أجلَهُن فأمسكوهُن
بمعروفٍ أو سرِّحوهن بمعروف ولاتمسكوهُنَّ ضراراً
لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه...﴾.

(البقرة: ٢٣١)

﴿وللمُطلّقاتِ متاعٌ بالمعروف، حقّاً على المتقين﴾

(البقرة: ٢٤١)

مع ذلك فإن المجتمعات المسلمة تُصعِّب الطلاق شرعياً بالنسبة للنساء إلى حد كبير من خلال العقاب الاجتماعي. ورغم أن القرآن يصرِّح بوضوح أن على الوالدين المُطَلَّقينْ فيما يتعلق بطفل قاصر، تقرير كيفية تربية الطفل بالتشاور المتبادل وأنهما يجب ألا يستخدما الطفل لإيذاء أو استغلال بعضهما الآخر:

﴿وإذا طلقتم النساء فـ ..... والوالداتُ يُرضِعْن
أولادَهُنَّ حولينْ كاملينْ لمن أراد أن يُتمَّ الرضاعة

وعلى المولود له رزقُهُنّ وكسوتهُنَّ بالمعروف لاتُكلّف
نفسٌ إلا وُسعَهَا. لاتُضارَّ والدةٌ بولدِها ولامولودٌ له
بولدِه وعلى الوارثِ مثلُ ذلك فان أرادا فصالاً عن
تراضٍ منهما وتشاوُرٍ فلا جُناحَ عليهما وإن أردتم أن
تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلّمتم ما
آتيتُم بالمعروف...﴾ (البقرة: ٢٣٢-٢٣٣)

رغم ذلك فإنه في معظم المجتمعات الإسلامية تُحرم النساء من أبنائهن (بشكل عام في سن السابعة) وبناتهن (بشكل عام في سن الثانية عشرة). إنه من الصعب تخيُّل فعل أكثر قسوة من حرمان أم من أطفالها ببساطة لأنها مطلقة. وبالرغم من أن تعدد الزوجات كانت غايته من قبل القرآن حماية اليتامى والأرامل[٢٨] فإن المسلمين جعلوه سيفاً يبقون زوجاتهم تحت تهديده بشكل دائم. وبالرغم كذلك من أن القرآن أعطى النساء حق الميراث ليس فقط عند موت أقارب قريبين بل أيضاً ورَّثَ بوصية ومنح أخرى خلال حياة وكيل خيِّر إلا أن المجتمعات الإسلامية لم توافق مطلقاً على فكرة إعطاء المرأة ثروة في تفضيل لها على الرجل حتى عندما تكون حاجتها وظروفها تسوِّغ ذلك.

بالرغم من أن الغرض من التشريع القرآني المتعلق بثياب النساء وسلوكهن[٢٩] كان من أجل تسهيل أعمالهن اليومية بأمان، حيث أن لهن الحق بالقيام بأعمال نافعة مربحة دون خوف من تحرش جنسي أو إزعاج:

﴿ولاتتمنوا مافضّل الله به بعضكم على بعض،
للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما
اكتسبْن واسألوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء
عليم﴾ (النساء: ٣٢)

بالرغم من ذلك وضعت المجتمعات الإسلامية العديد منهن خلف حجب وأكفان وأبواب مغلقة بذريعة حماية عفتهن، ناسية أنه تبعاً للقرآن

فإن تقييدهنّ وحجزهن في بيوتهن لم تكن طريقة الحياة الطبيعية للمرأة العفيفة، بل كانت عقاباً على «عدم العفة»:

﴿واللاتي يأتينَ الفاحشةَ من نسائكُم فاستشهدوا
عليهن أربعةً منكم فإن شهدوا فأمسكوهُنَّ في
البيوتِ حتى يتوفاهُنّ الموتُ...﴾ (النساء: ١٥)

وهكذا نرى أن المرأة والرجل اللذين خلقا متساويين من قبل الله وعُدّا متساويين في نظره، أصبحا غير متساويين إطلاقاً في المجتمعات الإسلامية.

إن الوصف القرآني للمرأة والرجل في الزواج (السورة٢: البقرة١٨٧): [هنّ لباس لكم وأنتم لباسٌ لهنَّ...] يتضمن تقارباً ومشاركة ومساواة، لكن الحضارة المسلمة قد خفَّضت العديد إذا لم يكن معظم النساء إلى وضع دمية في خيط، مخلوقات كالعبيد، الغرض الوحيد منهن في الحياة، تقديم الطعام وضروب التسلية والخدمة من أجل حاجة وملذات الرجال. وليس هذا فقط بل وصلت الجرأة والغرور إلى نكران حق النساء في التقرب إلى الله. إن أحد اعتقادات الإسلام الأساسية أن كل شخص ـ رجل وامرأة ـ مسؤول وعرضة للمحاسبة عن أفعاله الفردية.

كيف إذن يمكن للزوج أن يصبح بوابة زوجته للجنة أو النار؟ كيف إذن يمكن له أن يصبح الوسيط والحكم، ليس فقط لما يحدث لها في هذا العالم بل أيضاً في قدرها النهائي؟

مثل هذه الأسئلة تظهر الآن بوضوح مع زيادة عدد النساء المسلمات وهن متّجهات إلى تهديد توازن القوى القائم في ميدان العلاقات الأسرية في معظم المجتمعات الإسلامية. لكن وبالرغم من كل الأمور التي اتخذت مجرىً خاطئاً في حياة نساء مسلمات لا تعد ولا

تحصى على امتداد العصور، بسبب الحضارة الإسلامية البطريركية فهناك أمل في المستقبل. هناك أدلة من كل عالم الإسلام على نمو عدد المسلمين الذين بدأوا يفكرون جدياً بتعاليم القرآن مع تحررهم من وهم الرأسمالية والشيوعية والديمقراطية الغربية. وبينما يتعمّق هذا فإنه من المحتمل أن يقود إلى إدراك أن هذه المهمة الأسمى التي عُهد بها للمخلوقات الإنسانية من الله، كخلفاء ومنتدبين من الله على الأرض، من الممكن إنجازها فقط بتأسيس العدالة التي يعدها القرآن شرطاً أساسياً لسلام حقيقي. وانه لمن المستحيل الكلام عن السلام بالتعبير القرآني، دون القضاء على الظلم وانعدام المساواة والعدالة التي تعمّ الحياة الفردية والجمعية للكائنات الانسانية.

هنا من المهم ملاحظة أنّ هناك تشريعات قرآنية تخص تأسيس العدالة في سياق الكلام عن العلاقات الأسرية أكثر منها في أي موضع آخر. هذا يشير إلى الافتراض المتضمن في معظم تعاليم القرآن، أي إذا استطاعت الكائنات الإنسانية أن تتعلم تنظيم بيوتها بعدل بحيث تكون الحقوق الإنسانية لكل من بداخله ـ أطفال، نساء ورجال ـ مصانة، عندها تستطيع أيضاً تنظيم مجتمعها وعالمها على اتساعه، بعدل.

بكلمة أخرى يعتبر القرآن البيت كعالم صغير من «الأمة» والمجتمع العالمي ويؤكد على أهمية جعله «مسكن السلام» عن طريق حياة عادلة.

الفصل الثالث

هل تـنظيم الأسرة مسموح في الإسلام؟

ـ قضية حق المرأة في منع الحمل ـ

مصادر العرف الإسلامي

قبل أن يتكلم المرء عن تنظيم الأسرة كلاماً ذا معنى في سياق العرف الإسلامي، من الضروري توضيح ما المقصود بـ «العرف الإسلامي».

إن العرف ـ كما في معظم الأعراف الدينية ـ لا يشتق من مصدر واحد، ومعظم المسلمين إذا سئلوا عن مصادره سيشيرون إلى التالي: القرآن، السُنة [التقاليد العملية للنبي محمد (ص)]، الحديث [الأقوال المنسوبة للنبي محمد (ص)]، الفقه [مدارس القانون] والشريعة [دستور الحياة الذي يخص كل مظاهر حياة المسلمين] . وإذ تسهم هذه المصادر إلى ما يُشار إليه تراكمياً بـ «العرف الإسلامي»، إلاَّ إنه من المهم ملاحظة أنها لا تُشكل جسماً مترابطاً متناغماً لتقنيات أو لوصايا تمكن من اشتقاق مجموعة قواعد ومعايير إسلامية ـ متفق عليها ـ عموماً.

من الممكن ذكر العديد من الأمثلة على عدم التناغم بين المصادر المختلفة للتقليد الإسلامي. هناك على سبيل المثال عدم انسجام أحياناً بين القرآن ورواية الحديث اللذين يعتبران المصدران الرئيسيان للتقليد

الإسلامي. يمكن أيضاً ملاحظة عدم الترابط بين مجموع ما كتب من أحاديث ومجموع ما كتب في الفقه. ووفقاً لهذه الحقيقة يصعب التمكن من الحديث عن «الإسلام» أو «العرف الإسلامي» وكأنه مركزي ومتكامل.

إن عناصره المتنوعة تحتاج إلى أن تُعرَّف وتُفحص بشكل منفصل قبل أي محاولة للتعميم لأجل العرف ككل. من الواضح أنه من غير الممكن في المجال المتاح أمامنا هنا، القيام بنقاشٍ شاملٍ لقضية تنظيم الأسرة المعقدة في ضوء كل المصادر المذكورة سابقاً للعرف الإسلامي. لكن في التقرير المختصر التالي يُلفت الانتباه إلى تلك الأفكار والمواقف الموجودة في مصادر العرف الإسلامي، والتي أعتبرها مهمة ووثيقة الصلة (بالموضوع) في انعكاس معاصرٍ لموضوع ذي أهمية متزايدة في كلٍّ من العالمين الإسلامي والعالم عموماً.

القرآن وتنظيم الأسرة

نظرياً ـ بدون شك ـ القرآن هو المصدر الأعلى والأكثر موثوقية للإسلام القاعدي. إن أي تصريح قرآني واضح في أي موضوع، يُنظر إليه من قبل غالبية المسلمين الساحقة بأنه بات وحاسم وفوق الشك. لكن القرآن ليس كتاب قوانين وتشريعات تتعاطى مباشرة مع كل قضية أو مشكلة يمكن تخيلها. إنه كتاب حكمة إلهية، المقصود به توجيه المخلوقات الإنسانية بحيث تستطيع تحقيق إمكانياتهم كمخلوقات إنسانية «في أحسن تقويم» (السورة٩٥: التين ٤) وتصبح خليفة الله في الأرض.

وحيث لا يوجد هناك نص أو نصوص صريحة في القرآن تركز مباشرة على القضية المعاصرة لتنظيم الأسرة، فإن القرآن لا يؤسس من خلال تعاليمه الإطار الأخلاقي الذي يمكن أن يتيح لهذه القضية ـ كبقية القضايا المعاصرة ـ أن تُناقش بكل تعقيداتها المتعددة.

إن المسلمين التقدميين الذين يدعمون تنظيم الأسرة غالباً ما يقولون أن القرآن صامت بشأن قضية تنظيم الأسرة، ويأخذون هذا الصمت على أنه إشارة للإثبات وليس للرفض. على سبيل المثال أشار Fazlur Rahman إلى أن المرء «لا يجد في آيات القرآن ما يُنكر فكرة أنه علينا التحكّم في تعدادنا السكاني لوقت ما لمعالجة وضعنا الحالي»[١].

من جهة أخرى يشير المسلمون المحافظون من أمثال **أبي الأعلى المودودي** الذي يُصّر أن «القرآن ليس صامتاً»[٢] في الموضوع، يشيرون إلى الإدانة القرآنية لعملية وأد البنات وهن على قيد الحياة التي كانت منتشرة في الحجاز ما قبل الإسلام (السورة ٨١: التكوير ٨ ـ ٩) (السورة ١٦: النحل ٥٧ ـ ٥٩) وأيضاً إلى الآيات القرآنية التي تمنع أو تستهجن «قتل» الأطفال (السورة ٦: الأنعام ١٣٧، ١٤٠، ١٥١) (السورة ١٧: الإسراء ٣١)، (السورة ٦٠: الممتحنة ١٢) ويشيرون أيضاً إلى آيات ـ تدعم نزاعهم في أن زيادة النسل مبارك من الله ـ كما يلي:

﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء...﴾ (السورة ٤: النساء ١).

﴿... واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثَّركم﴾

(السورة٧: الأعراف ٨٦).

﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات...﴾

(السورة ١٦: النحل ٧٢).

﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية...﴾ (السورة١٣: الرعد ٣٨).

﴿والذين يقولون ربنا هبْ لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين...﴾ (السورة ٢٥: الفرقان ٧٤).

يورد أيضاً المعارضون لتنظيم الأسرة تلك الآيات القرآنية التي تذكر أن كل الأرزاق من عند الله، يمنحها لكل مخلوقاته ويبارك بشكل خاص أولئك الذين لديهم ثقة بالله:

﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾ (السورة٦: الأنعام ١٥١).

﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها...﴾

(السورة١١: هود ٦).

﴿.. ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه...﴾

(السورة ٦٥: الطلاق ٢ ـ ٣).

وحول هذه الحجج المستخدمة من قبل المسلمين المحافظين لتأكيد أن القرآن معارض لفكرة تنظيم الأسرة، أحب أن أشير إلى:

١ ـ إن إشارات القرآن إلى «قتل» الأطفال [الذين ـ تبعاً لشهادة كلٍّ من النصوص الدينية والتاريخية ـ كانوا إناثاً وليس ذكوراً] كانت لأطفال قد تمت ولادتهم وليس لأطفال لم يولدوا بعد. ولذلك فليس لهم صلة بنقاش ما إذا كان تبعاً لتعاليم القرآن التحكم بالولادة مسموح به أم لا.

٢ ـ إن إشارات القرآن إلى «قتل» الأطفال قد لا تشير في كل الأمثلة إلى القتل الفعلي للذرية بل قد تكون رمزاً لإساءة معاملة الأطفال كما أشير إليه من قِبَل غلام أحمد بارويز Ghulam Ahmad Parwez في قاموسه للقرآن أن جذر الكلمة العربية «قتل» لا يعني فقط القتل بواسطة سلاح أو سمّ بل أيضاً أن يذل ويحط من قدر أو يحرم من تعليم وتنشئة مناسبة[٣].

٣ ـ مع أن القرآن يُشير بشكل متكرر إلى الله كخالق ومساند لكل الخلق فإنه لا يخلي لا الأفراد ولا المجتمعات من مسؤوليتهم من أجل بقائهم وحسن أوضاعهم.

أ ـ بل إنه يُذكِّر المخلوقات الإنسانية باستمرار أن «كل امرئ بما كسب رهين»[٤].

ب ـ وأن العقل المنطقي يرفع المخلوقات الإنسانية فوق كل المخلوقات الأخرى ويمكّنها من أن تصبح خليفة الله على الأرض.

ج ـ إن الإيمان الصحيح متلازم مع الفعل الصحيح المستقيم (الأعمال) والذي يتضمن جهاداً متواصلاً للتغلب على العقبات الداخلية والخارجية التي تعوق جعل العالم مقر عدل وسلام والذي هو هدف الإسلام.

د ـ إن الله لن يغير ظروف المخلوقات الإنسانية حتى يغيروا ما بأنفسهم:

﴿ان الله لايُغيِّر مابقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم﴾

(السورة ١٣: الرعد ١١)

وأن استخدام الإشارات القرآنية إلى قدرة الله أو وعده بإبقاء وتأمين قوت كل الخلق في مناقشة «من أجل تعداد غير محدد بالنسبة للمصادر الاقتصادية هو ـ كما أشير إليه من Fazlur Rahman ـ شيء صبياني».

بالتأكيد لا يقصد القرآن أن يقول أن الله يزود كل المخلوقات الحية بأقواتها سواء أكان المخلوق قادراً على تدبير قوته أم لا»[٥].

وحول الحجج المستخدمة من قبل المسلمين التقدميين أو «المتحررين» في دعم تنظيم الأسرة، أي أن القرآن صامت فيما يتعلق بهذا الموضوع، مما يعني ـ على الأقل أنه غير معارض لفكرة التحكم بالنسل ـ أود الاشارة إلى:

١ ـ إن غياب الحرب لا يعني بالضرورة وجود السلم، تماماً كما لا يعني غياب الأمراض وجود الصحة. وبطريقة مماثلة، فإن حقيقة أن القرآن لا يقول أي شيء ضد فكرة التحكم بالنسل لا تعني بالضرورة أنه يدعم تنظيم الأسرة.

٢ ـ يتوقع العديد من مسلمي هذه الأيام، طالما أنهم تربوا طوال حياتهم على أن «القرآن هو دستور كامل للحياة»، أن يجدوا فيه تصريحاً محدداً أو مباشراً يخص كل القضايا أو المواضيع الهامة بالنسبة لهم. وعندما لا يجدوا مثل هذه التصريحات فإنهم يفترضون أن القرآن ليس لديه شيء ليقوله فيما يتعلق بهذه القضايا، أو إن «الصمت» المُلاحظ في القرآن فيما يتعلق بعدد من القضايا الهامة «المعاصرة» ـ كقضية تنظيم الأسرة مثلاً ـ تخلق فراغاً دينياً أخلاقياً يملأه الأفراد والجماعات المختلفة بطرق مختلفة. إن ما يجب فعله بشكل عاجل ـ في رأيي ـ هو إعادة نقدية جدية لفكرة أن القرآن دستور كامل للحياة.

بأي طريقة القرآن دستور حياة كامل؟ بالتأكيد إنه ليس موسوعة من الممكن استشارتها للحصول على معلومات معينة عن نظرة الله لكل مشكلة أو قضية أو ظرف من الممكن أن يواجه الإنسان.

وكذلك ليس القرآن «دستوراً شرعياً» كما أشير من قبل محمد إقبال[٦]. وبالنظر إلى القرآن ككتاب، يوجد فيه قوانين، تشريعات، قواعد، أو ضرائب جاهزة متعلقة بكل شيء في الحياة، فَقَدَ عدد كبير من المسلمين رؤيتهم للهدف الرئيسي للقرآن، هذا الهدف ـ كما صُرِّح من قِبَل إقبال ـ هو «من أجل إيقاظ أعلى وعي في الإنسان، لعلاقته مع الله والكون... الشيء المهم في هذا الاتصال هو وجهة النظر الديناميكية للقرآن»[٧].

مع أن القرآن لم يخاطب قضية تنظيم الأسرة بشكل محدد ومباشر، لكن تعاليمه تلقي بكمية جيدة من الضوء حول كيفية فهم هذه

القضية ـ وقضايا أخرى معاصرة ـ والتعامل معها ضمن الإطار الأخلاقي للإسلام المعياري.

على سبيل المثال يؤكد القرآن بشكل كبير على ما يشار إليه عامة بـ «حقوق الإنسان الأصلية» مثل:

أ ـ الحق باحترام إنسانية المرء:

﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلا﴾ (سورة الاسراء: ١٧:٧٠)

ب ـ الحق بأن يعامل بعدالة ومساواة

﴿ولا يجرمنّكم شنآن قومٍ على ألا تعدلوا، أعْدِلوا هو أقرب إلى التقوى﴾ (سورة المائدة:٨)

﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط...﴾

(النساء:١٣٥)

ج ـ الحق بأن يكون حراً من التقليدية الفاشية (دينياً، فكرياً، سياسياً واقتصادياً) والقبلية، والطبقية، والتمييز الجنسي والعبودية[٨].

د ـ الحق في الخصوصية والحماية من الافتراء والغيبة والسخرية[٩].

هـ ـ الحق في طلب العلم[١٠].

و ـ الحق في العمل الكسب والملكية[١١].

ز ـ الحق في الإقامة في مكان آمن حيث تكون ممتلكات المرء وعقوده واتفاقياته مصانة، وحيث يستطيع المرء التنقل بحرية[١٢].

ح ـ الحق في ترك المرء مكان نشأته تحت ظروف اضطهادية[١٣].

ط ـ الحق في أن يطور المرء إحساسه بالجمال والتمتع بالهبات التي خلقها الله[١٤].

ي ـ الحق ليس فقط في العيش بل في «العيش الكريم» والذي هو ممكن ـ تبعاً لرؤية القرآن ـ فقط في مجتمع عدل، لأن العدالة شرط أساسي للسلام والسلام شرط أساسي من أجل تحقيق الذات[١٥].

إن القرآن بالنسبة للمسلمين كونه كلام الله هو المصدر الأساسي والأكثر موثوقية في الإسلام. وكما ذُكر آنفاً يؤكد القرآن بقوة ويؤيد حقوق الإنسان الأصلية، وهذا يتبع أن هذه الحقوق يجب أن تكون معروفة ومُصانة في كل المجتمعات والتجمعات الإسلامية.

بالنظر إلى الظروف الاجتماعية، الثقافية، الحضارية، الاقتصادية والسياسية البائسة لكثير من بلدان العالم الإسلامي اليوم حيث تعتبر زيادة معدلات الولادة من بين أعلى النسب في العالم، فإن الحاجة لتنظيم الأسرة يمكن النظر إليها كأمر بديهي.

إن الحق في استخدام وسائل منع الحمل خاصة من قبل الجماهير المضرورة الذين حياتهم مهددة بالفقر الطاحن والأمية الكبيرة، يجب أن يُرى ـ في ضوء الرؤية القرآنية لما يجب أن يكون عليه المجتمع الإسلامي ـ كحق إنساني أساسي.

هذا قابل للتطبيق خصوصاً على النساء المسلمات اللواتي رغم كونهن عددياً أكثر من ٥٠٠ مليون لكنهن ضمن أكثر الأقليات في عدم التمثيل والصمت والعجز في العالم.

تنظيم الأسرة والحديث

في الحجاز في فترة ما قبل الإسلام كان يمارس التحكم بالنسل غالباً بـ «العزل» كما أشار Fazlur Rahman[١٦] . وفيما إذا كان الإسلام

يسمح أو يمنع «العزل»، نجد ثلاثة أحاديث معروفة في هذا الموضوع، وهي متناقضة.

تبعاً لواحد منها، تقرر أن النبي قد أشار إلى «العزل» كـ «أقل وأصغر ما يمكن فيه قتل طفل»، ويتناقض هذا الحديث مع آخر يروي أن شخصاً قد جاء النبي وقال: «نحن نمارس «العزل» لكن لدينا جيران يهود يقولون أن هذا أقل مافيه قتل طفل» أجاب النبي بقوله: «إنهم يكذبون، إنه ليس أقل ما يمكن قتل، تستطيع أن تمارسه لكن إن أراد الله أن يولد طفل فسيولد». بعد مدة أخبر هذا الرجل أن امرأته قد حملت فقال النبي: «ألم أقل لك إذا قدر الله للطفل أن يولد فسيولد»[١٧]. الحديث الثالث يتضارب مع الاثنين السابقين ويقول أن أصحاب الرسول قالوا[*]: «كنا نمارس العزل خلال حياة النبي»، وقد علم بذلك عندما كان القرآن أيضاً يُوحى به لكن القرآن لم يمنعه»[١٨].

تبعاً لـ Fazlur Rahman، فإن الحديث المذكور أخيراً «يبدو أن له مصداقية تاريخية... ولذلك فإنه يبدو من المعقول أن نقبل أن الممارسة الشائعة ما قبل الإسلام لمنع الحمل، قد أُيّدت من قبل النبي كما هي دون أن يقول عنها أي شيء مع أنه كان من الممكن أن يحرّمها إن فكّر بذلك»[١٩].

وبما أن اثنين من ثلاثة من الأحاديث المذكورة سابقاً تدل على أن النبي إما أنه قد أعطى موافقة شفهية (لفظية)، أو ضمنية على ممارسة «العزل» فان المسلمين التقدميين أو «المتحررين» يرون أن الحديث يجيز تنظيم الأسرة.

(*) حديث أبي سعيد الخضري قال: أصبنا سبياً، فكنا نعزل، فسألنا رسول الله (ص) فقال: «أو إنكم لتفعلون» قالها ثلاثاً «ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هي كائنة» وحديث جابر (ض) قال: «كنا نعزل والقرآن يرتل» (المترجمة)

من أجل دحض هذه الفكرة، يورد المسلمون المحافظون أو «التقليديون» الآيات القرآنية التي يُشار فيها إلى الذرية كمباركة من الله وإلى الأحاديث التي تروي أن النبي (ص) كان يحض أتباعه على الزواج والتناسل وزيادة أعدادهم[٢٠]، وأيضاً قوله أنه في يوم الدينونة سيفاخر بكثرة جماعته بالمقارنة مع الجماعات الأخرى: [تكاثروا فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة][٢١].

هنا من الممكن ملاحظة أنه لا الزواج ولا الإنجاب أمر إلزامي في الإسلام. وبينما يشير القرآن للذرية كمباركة فإنه أيضاً يُصرِّح بأنهم قد يكونوا مصدر «فتنة» أو أذى في هذا العالم:

﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده
أجرٌ عظيم﴾ (سورة الانفال:٢٨)

ان اهتمام القرآن بصلاح و «تقوى» المسلمين أكثر بكثير من اهتمامه بعددهم. هذا الاهتمام أيضاً نجد صداه في الحديث الذي يقول أن قلة فاضلة خير من كثرة غير مرغوب بها[٢٢].

من المهم في سياق تنظيم الأسرة والحديث، مَعْرِفَةُ أن الحديث الذي يُبَيِّن سماع النبي بممارسة «العزل» دون أن ينكره، ورد في مجموعتي **صحيح البخاري** و **صحيح مسلم** وهما المجموعتان اللتان يعتقد المسلمون السُّنة أنهما الأكثر موثوقية، في حين أن الحديث الذي يدين ممارسة «العزل» يُعتبر بشكل عام حديثاً ضعيفاً[٢٣]. هنا أيضاً من الأهمية ملاحظة أنه تبعاً للأحاديث المجموعة من قبل **أحمد بن حنبل** في «المسند» و **ابن ماجة** و **أبو داوود** في «السنن» أن النبي منع ممارسة «العزل» دون موافقة الزوجة[٢٤].

تـنـظيـم الأسرة ومـذاهـب الـتـشريـع
المُشــرعون (القانونيون) المسلمون

تسمح مذاهب التشريع الخمسة الكبرى في الإسلام أي، الحنفية، المالكية، الشافعية، الحنبلية والجعفرية بممارسة «العزل»[٢٥] وبينما يسمح المذهب الشافعي «بمنع الحمل غير المشروط **للرجل** الذي لا يحتاج لفعله موافقة الزوجة»[٢٦] فإن المذاهب الأربعة الأخرى تسمح به فقط بموافقة الزوجة[٢٧].

وبينما كانت ممارسة منع الحمل ممنوعة فقط من قبل المسلم الأندلسي في القرون الوسطى عند **ابن حزم زاهيري** أو المدرسة «الحرفية» التي لديها تابعين قلائل[٢٨]، فإنه كان مسموحاً من قبل مذهبي **الزيدية والإسماعيلية**[٢٩]. من بين المشرعين المسلمين الذين كانت لآرائهم التأثيرات الأكثر انتشاراً، **الغزالي** الذي كان فيلسوفاً متفوقاً وصوفياً بالإضافة إلى كونه عالم تشريعي شافعي وقد لخّص Fazlur Rahman موقف الغزالي من منع الحمل في النصّ التالي:

«يرى الغزالي أن الشخص الورع حقاً الذي بلغ مرحلة «الثقة بالله» (من بين أعلى المراحل الروحية الصوفية) لا يستطيع أن يلجأ إلى منع الحمل، لأنه يعرف أن الله الذي خلق روحاً لن يتركها دون قوت. لذلك فمن أجل شخص كهذا فإن ممارسة التحكم بالحمل أمراً غير شرعي. لكن الناس الذين لديهم هذه الثقة بالله نادرون جداً بينما الشخص العادي تنتابه أفكار دنيوية بشكل مستمر، من أجل أشخاص كهؤلاء فإنه من المسموح لهم ممارسة التحكم بالحمل لتحريرهم من همومهم الاقتصادية. وأكثر إذا كان الشخص يخاف من أن تجبره ولادة أطفال على الحصول على سبل العيش بوسائل غير شرعية

كالسرقة، فإنه من الإلزامي بالنسبة له أن يتجنب أن يكون له أطفالاً وذلك ليتجنب احتمالاً غير مشكوك فيه في ارتكاب معصية. ويذهب الغزالي أبعد من ذلك ليرى أن الرجل الذي يخشى من تأثر صحة زوجته أو مظهرها الحسن بـإنجاب الأطفال وأنه قد يكرهها يجب عليه أن يحجم عن إنجاب الأطفال[٣٠].

ملاحظة عن الإجهاض

هنا قد يكون من الهام ذكره أن عدة مشرّعين من القرون الوسطى لم يسمحوا فقط بمنع الحمل، ولكن أيضاً بالإجهاض خلال الأشهر الأربعة للحمل قبل «نفخ الروح» في الجنين[٣١]. بشكل عام، يتبنى المشّرعون المسلمون وجهتي نظر متعارضتين حول الإجهاض: الأولى أنه ممنوع كلياً. وجهة النظر هذه يتبناها أغلبية المذهب المالكي، بينما تسمح أقلية قليلة بالإجهاض خلال الأربعين يوماً الأولى من الحمل. ويمنع المذهب الجعفري الإجهاض أيضاً.

أما وجهة النظر الأخرى فترى أن الإجهاض مسموح حتى «نفخ الروح» والذي يعتقد أنه يحدث بعد ١٢٠ يوماً من الحمل. يتبنى هذه الفكرة المذهب الحنفي والشافعي والحنبلي والزيدي. مع أن هناك اختلافات في الرأي بين المشرعين الفرديين فيما يتعلق بوقت «نفخ الروح» وفيما إذا كان يجب أن يكون هناك سبب يجبر على الإجهاض. من ضمن الأسباب التي تفرض الإجهاض من الممكن ذكر الخطر على حياة الأم أو الرضيع، واحتمالية ولادة طفل مشوّه أو متخلف عقلياً أو جسدياً[٣٢].

انعكاسات على صحة المرأة ورفاهيتها (خيرها) في المجتمعات الإسلامية

استناداً إلى المراجعة لمصادر العرف الإسلامي المقدمة في الصفحات السابقة، نستطيع القول بثقة أن هناك دعماً كبيراً لتنظيم الأسرة ضمن الإطار الديني والأخلاقي بالإضافة إلى الكتابات الفلسفية والتشريعية للإسلام.

بالرغم من هذه الحقيقة تستمر عملياً حالة برامج تنظيم الأسرة سوءاً في معظم بلدان العالم المسلم. إنه ليس من موضوع هذه الورقة فحص كل العوامل المسؤولة عن هذه الحالة. ولكن أود أن أذكر عاملين أسهما في رأيي إلى حد كبير في عجز برامج تنظيم الأسرة في مجتمعات وتجمعات المسلمين. **العامل الأول** والأكثر أهمية هو أن النساء اللواتي هن أكثر الأشخاص تأثراً بوضوح وبشكل مباشر بتنظيم الأسرة الأولي (حيث فقط هنّ يستطعن أن يحملن) يُنْظَر إليهن عملياً في كل مجتمعات المسلمين بأنهنّ أقل من إنسان كامل. لقد سبق لي أن بينتُ في كتابات عدة كيف بُنِيَتْ فكرة كون المرأة أدنى من الرجل ـ الذي هو وحده إنسان كامل أو مستقل بذاته ـ في التقليد الإسلامي واليهودي والمسيحي، استناداً إلى ثلاثة افتراضات لاهوتية أصلية، وهذه الافتراضات هي:

أ ـ الخلق الأول لله كان الرجل وليس المرأة، حيث يُعتقد بأن المرأة قد خُلقت من ضلع الرجل فهي لذلك مشتقة وثانوية وجودياً.

ب ـ أن المرأة وليس الرجل كانت السبب في ما يوصف عادة بـ «سقوط الإنسان» أو طرده من الجنة ولذلك فإن «كل بنات حواء» يجب أن يُنظر إليهن ببغض وشك وازدراء.

ج ـ أن المرأة لم تُخلق فقط من **الرجل** بل من **أجله** أيضاً مما يجعل وجودها مساعداً وليس أَوَليّ الأهمية.

إن السبب الرئيسي في بقاء هذه الافتراضات ـ والتي هي غير مسّوغة بقراءة صحيحة للقرآن ـ دون مقاومة طوال هذا الوقت ليس فقط أن جماهير النساء المسلمات مغموسات في الفقر والأمية، بل أيضاً أنه حتى النساء المسلمات المثقفات المتميزات ـ مثل نظيراتهن في الأعراف الدينية الأخرى ـ قد أنكرن تنظيمياً الفرصة في إحراز وسائل نقدية يستطعن بواسطتها فحص جذور كل الأعراف والتقاليد واكتشاف كيف أصبحن محرومات، ولذلك هن غير قادرات على دحض الحجج التي تفرض قوانين غير عادلة وتقييدات عليهن باسم الإسلام.

هنا من الضروري ملاحظة أن النساء كنَّ الهدف الأساسي من عملية «التوجه الإسلامي» التي ابتدأتها الحكومات في عدد من البلدان المسلمة في السنوات الأخيرة.

من أجل فهم هذه الظاهرة، من الضروري أن نعرف أن المسلمين بعامة يرون في النساء المثقفات أو المتحررات (المنطلقات) رمزاً ليس لـ «التحديث» بل لـ «التغريب» أو التوجه الغربي وبينما يرتبط الأول بالعلم والتقنية والتقدم وهو مُوَافَقٌ عليه بشكل كبير فإن الأخير مرتبط برموز حضارة الكتلة الغربية كالاختلاط والأسر والمجتمعات المفككة والأولاد غير الشرعيين والإدمان الكحولي والمخدرات وهو مرفوض بشكل كبير.

يشعر وكلاء التقليدية المسلمة بحاجة قوية وعاجلة لوضع النساء في «مكانهن المناسب». إنهم يسعون لفعل ذلك بحجزهن وتقييدهن في بيوتهن وبتخفيضهن تصنيفياً ـ وبشكل يقيني عملياً ـ إلى حالة أقل من إنسان كامل[٣٥].

إن النساء المسلمات لسن معرضات لاستعباد جسدي واقتصادي فقط، لكن أيضاً إلى تجريد فكري عقلي وأخلاقي وروحي من خلال تشويه وتحريف الرسالة الأساسية للإسلام. لذلك، فقد قيل لهن أنه تبعاً لـ(السورة ٢: البقرة ٢٢٣) فإن الزوجة هي «حرث» يستطيع الرجل أن يحرثها متى شاء. وأنه تبعاً لـ (السورة ٢: البقرة ٢٢٨) و (السورة ٤: النساء ٣٤) فإن الرجال «لهم درجة» عليهن وأن لهم الحق في السيطرة وحبس النساء وحتى ضرب اللاتي يرفضن أن يكنّ تابعات ومطيعات كلياً لأزواجهن الذين يُشار إليهم بـ «الله في صيغة أرضية».

كوني قضيتُ عشرين عاماً وأنا أقوم بأبحاث على النصوص القرآنية المتعلقة بالنساء، أعلم أن القرآن لا يميز ضد النساء، بل هو في الحقيقة وبالنظر إلى حرمانهن وظروفهن الحساسة يحمي إلى درجة كبيرة حقوقهن واهتماماتهن. لكن هذا لا يغير الحقيقة أن الطريقة التي طُبّق بها الإسلام في معظم المجتمعات الإسلامية قد تركت ملايين النساء المسلمات مسحوقات جسدياً وفكرياً وروحياً دون أي معنى لقيمة الذات أو لاحترام الذات أو الثقة بالنفس. إنهن يجدن أنه من الصعب جداً مقاومة الضغط المطبق عليهن من مسلمين محافظين واسعي التأثير مثل أبو الأعلى المودودي الذي يخبرهم تكراراً أن تنظيم الأسرة شيطاني النية ومناقض لكل رغبات الله وخير وسعادة المجتمع.

إن ملاحظات المودودي المذكورة فيما يلي هي نموذج للخط المحافظ في التفكير والذي يعوق دون نجاح برامج تنظيم الأسرة في معظم أنحاء العالم الإسلامي:

> «التعليم المختلط، توّظف النساء في المكاتب، التجمعات الاجتماعية المختلطة، الثياب النسائية غير المحتشمة وعروض الجمال أصبحت الآن مظهراً شائعاً في حياتنا الاجتماعية. أيضاً تم وضع عراقيل شرعية في طريق الزواج والحصول على

أكثر من زوجة واحدة، ولكن ليس هناك أي عقبات ضد الاحتفاظ بالخليلات وضد العلاقات المحرمة قبل الزواج. قد يكون في مجتمع كهذا آخر حائل من الممكن أن يمنع المرأة من الاستسلام للرجل هو الخوف من حمل غير شرعي. فلننزل هذا العائق أيضاً ولنسمح للنساء ذوات الشخصيات الضعيفة بالاستسلام بأمان لأصدقائهن الذكور وسنرى كيف سيبلى ذلك المجتمع بفيضان فسق أخلاقي[٣٦]».

دون تغيير جذري في طريقة فهم النساء لذواتهن، لن يكون هناك أية فرصة كي يصبح تنظيم الأسرة جزءاً كاملاً من حياة المسلم العائلية والاجتماعية. كيف لهذا التغير أن يحدث؟ هو التحدي الذي نحتاج أن يواجه به كل من هو مَعْنِي بمستقبل الأمة الإسلامية والعالم بأكمله.

العامل الثاني الذي كان مسؤولاً في رأيي عن فشل العديد من مشاريع التطور بما فيها مشاريع تنظيم الأسرة في العالم الإسلامي، هو الموقف تجاه الدين بعامة والذي يوجد في عقول هؤلاء الذين يعممون هذه المشاريع.

النزعة ـ السائدة بشكل واسع عند «خبراء» التطور ـ عند معظم الذين لديهم توجه غربي دنيوي، هي أنَّ «قضية التطور لا تتضمن مناقشة لاهوتية إنها تتعلق بقضايا أخرى مختلفة كلياً»[٣٧]. إنني لا أتفق أبداً مع هؤلاء الذين ينظرون إلى الدين بكونه غير متصل بموضوع قضايا التطور.

حتى هؤلاء الذين يسلِّمون بأنه قد يكون **الدين أحد العوامل** التي يجب اعتبارها في مشاريع التطور، لا يفهمون حقيقة المجتمعات الإسلامية اليوم. مؤكداً أنه في سياق العالم الإسلامي، إنه من الأساسي في حكمي النظر إلى الإسلام (بكل تعقيداته) ليس فقط بكونه أحد العوامل المؤثرة في قضايا التطور بل بأنه المنشأ الذي تتجذر فيه كل العوامل.

الفصل الرابع

النساء في سياق الحديث عن الزواج والطلاق وتعدد الزوجات في الإسلام

موقف الإسلام تجاه الزواج (والعزوبية)

قبل تفحص المظاهر المتعددة للعلاقة المعقدة بين الرجل والمرأة في سياق الحديث عن الزواج في الإسلام، إنه لمن وثيق الصلة بالموضوع أن نلاحظ أن القرآن قد تبنى موقفاً إيجابياً تجاه الزواج وشجع المسلمين القادرين على الزواج من نساء «فاضلات عفيفات»، أو المسلمات القادرات على الزواج من رجال «فاضلين عفيفين» بغض النظر عن الفرق في المستوى أو الغنى بين الرجل والمرأة:

﴿وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم
وإمائكم أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله
واسع عليم﴾ (سورة النور، آية ٣٢)

وبما أن الزواج من امرأة أَمة قد يكون ذا ضغط اقتصادي أقل من الزواج من امرأة حرة فإن القرآن يقترح في (سورة النساء، ٢٥) أن تُعتبر مثل هذه الزيجات كخيار آخر(*):

(*) يُعنى القرآن بعدة طرق بالقضايا الناتجة عن الرق ويحتوي على العديد من التوصيات الهادفة إلى تحرير العبيد واندماجهم التدريجي في مجتمع المؤمنين الأحرار. إن الزواج من امرأة أمة يؤدي إلى عدة نهايات: يحررها من العبودية ويعطيها ←

﴿ومن لم يستطع منكم طوْلاً أن ينكِحَ المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بـإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بـإذن أهلهن وأتوهن أجورهن بالمعروف...﴾.

أيضاً يُسمح للرجال المسلمين أن يتزوجوا نساء غير مسلمات شرط أن يكنَّ من «أهل الكتاب»:

﴿..والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن...﴾

(سورة المائدة آية٥).

إن موقف الإسلام الإيجابي تجاه الزواج ـ وهذا يتناقض بشكل صريح مع وجهة نظر العديد من صائغي العرف المسيحي[1] الذين يعتبرون العزوبية حالة أخلاقية أعلى من الزواج ـ يظهر في عدد من الأحاديث الشائعة المنسوبة للنبي محمد (ص). وثمة تخمينات نقدية فيما يخص صحتها أو عدم صحتها تقال على انفراد. إن أعرافاً كالتالية كان لها تأثيراً قوياً على العقول في المجتمعات الإسلامية:

١ ـ حدثنا **عمر بن حفص بن غياث** حدثنا أبي حدثنا الأعمش قال: حدثني عمارة عن عبد الرحمن بن يزيد قال: دخلت مع علقمة والأسود على عبد الله فقال عبد الله كنا مع النبي (ص) شباباً لا نجد شيئاً فقال لنا رسول الله:

← وضعاً اجتماعياً محترماً. ويجعل من الممكن لرجل ذي إمكانيات بسيطة الزواج ويخلص المجتمع من المشاكل الناتجة عن الجنس غير المشروع مع النساء الأمات والمؤدي إلى ذرية غير شرعية والتي يكون لها صفة الرق أيضاً مما يدعم المؤسسة الاجتماعية اللا أخلاقية للرق.

«يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم». (بخاري ومسلم)

٢ ـ عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله (ص) قال:

«الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة فليتق الله في نصفه الآخر».

إن التقاليد (الأعراف) الدينية مثل الكاثوليكية (المسيحية) أو النيرافادا (البوذية) التي تعتبر أن الحياة الرهبانية هي المثال، تميل إلى أخذ وجهة نظر سلبية من الزواج أو على الأقل تعتبره خياراً دون العزوبية.

يأخذ الإسلام موقفاً إيجابياً وعرفاً كالتالي يتمثل في التفكير المسلم: [قال سعد بن أبي وقاص: ردَّ رسول الله (ص) على عثمان بن مظعون التَّبتُّل ولو أذِنَ له لاختصيْنا». [كان عثمان بن مظعون يعيش عازباً].

نظراً لحقيقة أن المسلمين بعامة يعدون الزواج «نصف الدين»، فإن الرجل أو المرأة غير المتزوجين شذوذ في المجتمع الإسلامي، بخاصة إذا كانا صحيحي العقل والجسم. يُفرض ضغط اجتماعي على الأهل لترتيب زواج أولادهم عندما يبلغون سناً معينة. وهذا واقع بخاصة في حالة البنات. لكن ونظراً لتأثير التصوّف الكبير فإن عزوبية أولئك الرجال الذين نذروا حياتهم كلها لله أصبحت مقبولة في العديد من المجتمعات المسلمة. هؤلاء الرجال «الأتقياء» غالباً ما يتلّقون علامات احترام كبيرة ويُعتقد أنهم يملكون صفاءً «روحياً» أعظم من الآخرين.

أما في حالة النساء، فعلى العكس الوضع مختلف تماماً. لقد قدَّم الإسلام امرأة وعدّها وَليَّة (قديِّسة)، عاشت حياة عزوبية، إنها رابعة العدويّة التي كانت أكبر صوفية ممجدة في أيامها، لكن المجتمع الإسلامي

اليوم لا يبدو أن لديه مكان لنساء «تقيات»، يُدرن ظهورهن لمؤسسة الزواج ليَحْيَيْن حياة عزوبية مركزها الله. أشار القرآن (سورة الحديد، آية ٢٦) إلى أن الرهبانية ـ المُمارسة من قبل المسيحيين ـ لم تكن مفروضة من قبل الله. بالنسبة للمسلمين فقد كان هذا يعني أن الرهبانية أمر غير طبيعي وبالتالي ممنوع. مما يعني أن العزوبية «أمر غير طبيعي» وأن الزواج هو «الأمر الطبيعي» للرجال والنساء.

لكن كما أُشير سابقاً فإن استحساناً اجتماعياً قد انتشر في حالة الرجال الذين يقررون البقاء عازبين وخصوصاً إذا كانوا «رجال الله». وبكلمة أخرى إنه لمن الجدير بالثناء أن ينذر الرجل المسلم حياته لله. لكن أن تنذر امرأة مسلمة حياتها لله فهذا أمر بعيد جداً عن الثناء.

يشعر العديد من المسلمين التقليديين، على سبيل المثال، بضيق كبير وحتى بحرج، إذا ذُكرت رابعة العدوية المرأة الوليّة القديسة المميزة، التي بزَّت الرجال الأولياء في عصر الأولياء.

لقد سمعت عضواً بارزاً في جمعية إسلامية يقول في هذا السياق: «قد تكون رابعة العدوية امرأة جيدة لكنها لم تعطِ مثالاً جيداً للنساء المسلمات» .

يعتقد المسلمون بعامة أن الإسلام دين وطريقة حياة تبعاً للنظام الطبيعي المؤسس من الله. إنهم يؤمنون بأن أفضل سبيل للوصول إلى الله أو لخدمة الله هو الجهاد والنضال في العالم الواقعي وليس بإعطاء الظهور له والهروب من وجهة النظر هذه، فأي نكران زهدي أو تخلٍّ عن هذا العالم هو «خطأ» والعزوبية كونها صيغة من التخلي عن الحياة الأسروية أيضاً «خطأ».

لكن إذا كانت العزوبية خطأ بشكل أساسي لماذا هي أكثر خطأً في حالة النساء منها في حالة الرجال؟ إن هذا سؤال مهم لأنه يقود إلى قلب السؤال الكلي للعلاقة المتبادلة بين الجنسين في الإسلام.

إن امرأة غير متزوجة هي بهذا المعنى امرأة لوحدها، والمسلمون ـ بعامة ـ لا يعرفون كيف يقيمون علاقة مع امرأة كهذه.

عندما يتكلم المسلمون عن الحقوق والمسئوليات أو عن دور النساء في الإسلام فهم غالباً يتكلمون عن النساء في محيط الزواج. أي النساء كزوجات وأمهات.

إن حقيقة أن هناك نساء مسلمات غير متزوجات لكن مع ذلك هن جزء من الأمة الإسلامية تبدو متجاهلة بشكل كبير ولذلك فالسؤال: ما هو دور وضع المرأة غير المتزوجة في الإسلام؟ لم يكن أبداً ـ حسب علمي ـ موضوع تفكير تنظيمي جاد.

مفهوم الزواج في الإسلام

إن خلق الله ككل، [إنْ هو إلا بالحق] (السورة ١٥: الحجر ٨٥) وليس [لاعبين] (السورة ٢١: الأنبياء ١٦) هو أحد الأفكار الرئيسية في القرآن.

انه لفضل خاص من الله على الإنسانية التي شُكِّلت [في أحسن تقويم] (سورة التين، ٤)، خَلْقُهُ الرجال والنساء رفقاء، ويقصد بالرفقة بين هؤلاء أن يكونوا مصدر حب متبادل وسلام، كما جاء في القرآن:

﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها...﴾ (سورة الأعراف: ١٨٩).

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾ (سورة الروم٢١).

تبعاً للقرآن فإن الرجال والنساء هم «من بعضهم البعض» و«أولياء» لبعضهم البعض:

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض...﴾

(سورة التوبة: ٧١).

﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل
منكم من ذكر وأنثى بعضكم من بعض...﴾

(سورة آل عمران: ١٩٥).

بكلمة أخرى، لا يخلق القرآن هرمية يكون فيها الرجال فوق النساء ولا يحرِّض الرجال ضد النساء في علاقة عكسية. علاقتهم هي علاقة مساواة ومودة وتبادل عواطف.

يصف القرآن العلاقة بين الزوج والزوجة كعلاقة ترمز إلى كلٍّ من المساواة والحميمية [ليس بالنظر للزوج كمتفوق على الزوجة كما يدعي ذوو الثقافة المسلمة الشائعة] . هذا يمكن رؤيته على سبيل المثال في (سورة البقرة ١٨٧):

﴿نساءكم هن لباسٌ لكم وأنتم لباس لهن...﴾.

تبعاً لتعاليم القرآن، كما وضح في النصوص السابقة فإن «الغرض من الزواج هو خلق حياة في محيط حب وانسجام ورفقة من أجل إتمام وتحقيق الغرض الأسمى للحياة»[٢]. ولما كان الزواج في الإسلام عقد فإنه يفترض مقدماً أن كلاً من الشخصين اللذيْن يقومان بالعقد قد بلغا سن الرشد، رغم أن القرآن لا يذكر أي سن معينة للزواج. الآية٦ من سورة النساء، تأمر الرجال المسلمين أن يكونوا أوصياء على الأيتام حتى يصبحوا ناضجين كفاية للزواج:

﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح، فإن آنستم
منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم...﴾

ونجد فكرة مماثلة في سورة الإسراء آية٣٤):

﴿ولاتقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسنُ حتى يبلغ
أشده...﴾

وكذلك في سورة الأنعام آية:١٥٢). وبما أن القاصر الخاضع لوصاية لا يستطيع أن يدخل في عقد بشكل مستقل، فليس هناك دعم لزواج فتيات قاصرات في القرآن.

لكن المجتمعات الإسلامية وجدت طرقاً لتشريع هذه الزيجات. إحدى هذه الطرق مثلاً هو الاستشهاد بزواج النبي (ص) من عائشة عندما كانت في السادسة أو التاسعة من عمرها. طبعاً إذا استطاع النبي (ص) أن يتزوج عائشة عندما كانت صغيرة جداً ـ يقول الفقهاء ـ فلا يمكن أن يكون هناك خطأ في مثل هذه الزيجات.

بعض العلماء المسلمين الجدد بوعيهم للخطورة العملية لهذا المثال بذلوا جهداً ليظهروا أن التاريخ قد حُرِّف لجعل عائشة قاصر عند زواجها وأنها في الواقع كانت إما في السابعة عشر أو التاسعة عشر من عمرها(٣).

يجب أن يؤسس الزواج في الإسلام على موافقة كلا الطرفين. الآية٣ من سورة النساء تخاطب الرجال خاصة أن [انكحوا ما طاب لكم من النساء]. لكن الآية ١٩ من السورة نفسها تخبرهم أنه: [لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كرهاً...]، مما يشير بوضوح إلى أن موافقة المرأة كيفما تُعبّر، ضرورية قبل أن يسري عقد الزواج.

هناك أحاديث منسوبة إلى النبي محمد (ص) تُبيِّنُ أن امرأة قد أُعطيت الخيار لتُبطل عقد زواجها الذي تم ضد إرادتها(*).

(*) حدّث أبو هريرة أن النبي (ص) قال: لاتُنكح الأيِّمُ حتى تُستأمر ولاتُنكحُ البكرُ حتى تُستأذن. قالوا: يارسول الله كيف اذنها؟ قال: أن تسكت. وعن خنساء بنت خذام الأنصارية أن أباها زوجها وهي ثيّب فكرهت ذلك فأتت رسول الله (ص) فردَّ نكاحها (المترجمة)

إن الولي أو الوصي ليس مطلوباً من أجل عقد الزواج بل ليدل أنه إذا أرادت المرأة أن تعيّن وكيلاً فإنها تستطيع ذلك(٤).

وهكذا فإن الزواج كما يراه الإسلام يفترض أن المرأة هي كائن إنساني مستقل بذاته تدخل في عقد تفهمه وتقبله.

لكن عملياً، هذا بعيد جداً عن الواقع. إن زواج القاصرات ظاهرة شائعة في المجتمعات الإسلامية. وسؤال المرأة (وفي وقت أيضاً الرجل) عن رأيها في مسألة الزواج، هو شيء لم يُسمع به أو على الأقل غير مألوف في العديد من أجزاء المجتمعات الإسلامية، و «القبول» الذي يُحصل عليه عند مراسم الزواج هو مجرد رسميات.

ليس فقط لا يُنشد رأي المرأة في معظم الحالات، بل أيضاً هناك أمثلة عدة على زواج إجباري بالإكراه. لا حاجة للقول بأن كل هذه الممارسات معاكسة لروح الوصايا القرآنية المتعلقة بالزواج. إن ممارسات كهذه ليست فقط انتهاكاً جسيماً لحقوق المرأة المسلمة الأساسية لكن أيضاً ذات ضرر كبير للرجال المسلمين الذين يُجبرون على الزواج من نساء لسن مناسبات لهم أو لا يرغبون في الزواج منهن.

سبقت الإشارة إلى حقيقة أن الإسلام لا ينظر إلى الفرق الاقتصادي أو الاجتماعي كعقبة في طريق الزواج. المعيار الأساسي الذي يجب أن يبقى في العقل عند اختيار الزوج أو الزوجة هو «الفضيلة» و«الاستقامة». لكن العديد من مسلمي اليوم ذوي ميول مادية، والزواج غالباً ما يكون صفقة عمل بقدر ما هو واجب ديني أو ترتيب اجتماعي.

إن عادة البائنة والتي على المرأة أن تقدمها عند الزواج ذات أهمية خاصة. ليس هناك أي ذكر للبائنة في القرآن لكن في العديد من المجتمعات الإسلامية(**)، من المستحيل عملياً أن تتزوج فتاة إلا إذا كان

(**) مثلاً في الهند والباكستان وبنغلادش

باستطاعة أهلها تزويدها ببائنة كافية. هذا أحد الأسباب التي تجعل الفقراء يفزعون من ولادة بنات. أهل الأبناء، بخاصة عندما يكون الأبناء ناجحين وأغنياء يطلبون مطالب باهظة من حمو أولادهم المستقبليون. كُتِبَ الكثير عن المشقة والغم الناتجان عن العادة غير الإسلامية للبائنة لكن الممارسة تستمر كفكرة مؤداها أن النساءَ سلعٌ تُباعُ وتُشرى، تبقى في مؤخرة الوعي المسلم.

ما يذكر القرآن في سياق الزواج هو المهر، وهو ليس سعر العروس إنما هدية يعطيها العريس لعروسه. المهر قابلٌ للدفع عند الزواج (إلا إذا ألغته المرأة أو وافقت على دفعه مؤجلاً) ويجب أن يتناسب مع مقدرة الرجل. الغرض من المهر هو إعطاء المرأة (حتى لو كانت أمة) الشعور بأنها مرغوبة ومُقدَّرة وسيعيلها الرجل بحسب إمكانياته. ما عُني بالمهر ليس ما هو عليه الحال الآن حيث يطلب أهل الفتيات مهوراً مفرطة كحماية لها من الطلاق الأحادي (من طرف واحد) من قبل الزوج.

من جهة أخرى مع أن العديد من الرجال المسلمين يوافقون على دفع مبالغ كبيرة من المال كمهر[*٦] إلا أنهم لا يدفعونها إطلاقاً إلا إذا كان هناك دعوى قضائية عند نزاع الطلاق.

وهكذا نظرياً فإن H. Abdulati على حق حين يقول أن وجهة نظر الإسلام عن الزواج هي:

«ـ التزام تجاه الحياة نفسها، للمجتمع، وللبقاء المبجّل للعرف الإنساني.

ـ التزام يقوم به الطرفان المتزوجان لبعضهما البعض ولله...

إنه نوع من الالتزام يجدان فيه الإنجاز الزوجي وتحقيق النفس، الحب والسلام، التعاطف والأمن، الراحة والأمل»[٧].

إنه من الضروري أن نشير إلى أن الزيجات الإسلامية التي تستخدم

(*٦) شهدت زفاف طالبين مسلمين من إيران، كان المهر المكتوب مليون دولار

فيها البائنة والمهر كوسيلة لتأسيس نفوذ وأحياناً كأداة ابتزاز هي في الحقيقة تعاملات عمل وليست «أعمال تكريس (تقوى) مسؤولة»[٨].

الموقف تجاه الطلاق ـ المرأة المسلمة المطلّقة

ليس من الممكن أن يوجد مجتمع يضع قيمة عالية لمؤسسة الزواج ويعتبر الطلاق نهاية مرغوبة. من أي وجهة نظر يمثل الطّلاق مأساة إنسانية؟

ينصح القرآن أيضاً في حالة الصعوبات بين الزوج والزوجة بخطوات يجب اتّخاذها من قبل «وسطاء» بين الطرفين لحل المشاكل وإنقاذ الزواج فالآية ٣٥ من سورة النساء على سبيل المثال تقول:

﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله
وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفّق الله بينهما
إنَّ الله كان عليماً خبيراً﴾

إنه لمن الأهمية الكبرى أن نلاحظ أنه ليس هناك تصريح واحد في القرآن يدين الطلاق [والذي يعني حرفياً «أن يكون حراً»][٩].

والزواج كعقد، ينظر الإسلام إليه كغيره من العقود، عرضة للتصفية النهائية إذا رغب أحد الطرفين. لا يقدّم القرآن أي حكم تقييم للطلاق. لذلك فإن عدم الموافقة القوي الوجود في المجتمعات المسلمة لا يستند إلى القرآن بل يستند بأكمله إلى الأحاديث المنسوبة للنبي (ص)[*] .

(*) روى الثعلبي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله (ص): «إن من أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق»، وعن علي عن النبي (ص) قال: «تزوجوا ولاتطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش». وعن أبي موسى قال: قال رسول الله: «لاتطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله عز وجل لايحب الذواقين ولا الذواقات». وعن أنس قال:: قال رسول الله (ص): «ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق» (المترجمة).

وكما يحدث للأحاديث الأخرى التي استخدمتها المجتمعات الإسلامية ضد النساء، لم يُشْرَع بأي دراسة جدية للمظاهر المادية والشكلية (الاصطلاحية) للحديث للتحقق من درجة موثوقيته الواجب ملاءمتها مع الممارسة. لقد استخدم ببساطة كشجب كلي ودون تحفظ للطلاق. إن الزواج في الإسلام عقد اجتماعي وليس سراً مقدساً أو ميثاقاً. وللنساء أيضاً الحق كما للرجال في البحث عن حلّ الزواج في ظروف معينة. فالآية ١٢٨ من سورة النساء: على سبيل المثال:

﴿وإن امرأةٌ خافت من بعلها نُشُوزاً أو إعراضاً فلا جُناحَ عليهما أن يُصْلِحا بينهما صُلْحاً والصُّلحُ خيرٌ وأُحضرتِ الأنفسُ الشحَّ وإن تُحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا﴾.

إن الحق في الحصول على الطلاق هو من أهم الحقوق المُعطاة للنساء في الإسلام، حيث أن قلة من الأعراف الدينية منحت النساء هذا الحق، في رؤية التصريح القرآني في (السورة٢: البقرة ٢٢٨): ﴿...ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾.

كان على المجتمعات الإسلامية أن تقبل حقيقة أن الطلاق مسموح انطلاقاً من الاستشهادات السابقة، لكنهم سعوا إلى تقليص حق المرأة في الطلاق إلى حد كبير إن لم يكن إلغاءه نهائياً.

ان القرآن يوصي في سياق الكلام عن الطلاق، كما في حالة الزواج، بموقف العدالة واللطف تجاه النساء:

﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن **فأمسكوهن بمعروف** أو **سرّحوهن** بمعروف، ولا تمسكوهن ضِراراً لتعتدوا ومن **يفعل** ذلك فقد **ظلم** نفسه...﴾

(السورة٢: البقرة٢٣١).

﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن، على الموسع قدره وعلى المقترِ قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾.

﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلاّ أن يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾

(السورة ٢: البقرة ٢٣٦_٢٣٧).

﴿وللمطلقات متاعٌ بالمعروف حقاً على المتقين﴾

(السورة ٢: البقرة ٢٤١).

﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ (سورة النساء: ٢٠).

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن **سراحاً جميلا**﴾ (سورة الأحزاب: ٤٩).

انظر كذلك (السورة ٦٥: الطلاق ١_٧).

من الإستشهادات القرآنية السابقة يمكن أن يرى أن موقف القرآن تجاه النساء المطلقات على عكس وجهة النظر السائدة في معظم المجتمعات المسلمة هو موقف تعاطف واهتمام وليس موقف نقد أو إدانة. من المؤكد أن أكثر المحاكم مناصرة للمساواة بين الجنسين في العالم لا تستطيع إعطاء المرأة المطلقة أكثر مما أعطيت في المرسوم القرآني.

تعدد الزوجات

أحد الأعراف التي يُهاجَم بسببها المسلمون أكثر من غيرها من قبل الآخرين من غير المسلمين هي تعدُّد الزوجات، والاعتقاد الخاطئ في العديد من العقول هو أن الأساسي في المجتمعات الإسلامية تعدد الزوجات. لكن هناك فقط نص واحد في القرآن يشير بشكل محدد إلى تعدد الزوجات كقانون اجتماعي، وأُعطِيَ الإذنَ بالزواج بأكثر من واحدة تحت ظروف استثنائية جداً وبشروط متشددة صارمة. مع أن تعدد الزوجات قد أسيء استخدامه في الثقافة (الحضارة) الإسلامية، إلا أنه قد سمح به في القرآن فقط في سياق حماية أملاك أو حقوق اليتامى وعلاوة على ذلك كانت العدالة شرطاً ضرورياً كما يدل النص التالي:

﴿واتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب
ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً.
إن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب
لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا
تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا
تعولوا﴾ (السورة ٤: النساء ٢ـ٣).

عندما أُوحي بالنصوص أعلاه كان مجتمع المدينة الأول، المسلم قد تعرض لمشكلة اجتماعية حرجة، فبسبب موت العديد من الرجال المسلمين في الحروب بين المسلمين والمكيين غير المسلمين واهتداء النساء المتزوجات من غير المسلمين للإسلام أصبح هناك عدد كبير من الأطفال والنساء بحاجة لإعالة وعناية.

بالإضافة إلى أن أملاك اليتامى كان يجب أن تُصان (كما أشير في الآية أعلاه) لم يُعطَ الإذن بالزواج من اثنتين أو ثلاث نساء بسهولة، بل قد أُعطي على مضض كملجأ أخير موجود ـ وفقط لأن القرآن قد أدرك

بواقعيته اللافتة غير العادية، أن معظم المخلوقات الإنسانية غير قادرة على درجة عالية من الإيثار والغيرية وأن معظم الرجال ليسوا غيريين ليتعهدوا مسؤولية العناية بالنساء والأطفال المضرورات.

إذن فإن تعدد الزوجات سُمِحَ به في القرآن، لكن فقط في ظروف مشقة اجتماعية كبيرة ومن اجل أغراض إنسانية. وكذلك ثمة شرط مرتبط به: وجوب تطبيق العدالة ليست فقط مع الأيتام الذين من أجلهم كان الإذن بالزواج بأكثر من امرأة واحدة، لكن أيضاً مع الزوجات وإذا شعر الرجل بأنه لا يستطيع المحافظة على علاقة متساوية مع أكثر من امرأة، عندها عليه أن يتزوج واحدة فقط.

هنا يجب التشديد أنه تبعاً للقرآن فإن تعدد الزوجات مسموح لكن بشرط أن يكون الرجل عادلاً بكل الوسائل مع جميع الزوجات.

إذا كان الشرط أصعب من أن يمكن تحقيقه، عندها يجب ألا يتزوج الرجل بأكثر من واحدة. لكن عملياً مارس الرجال المسلمون تعدد الزوجات بحرية دون العناية بالشرط المتصل وغالباً دون أي وخز للضمير. وفي الحقيقة غالباً مايستشهد في الآية ١٢٩ من سورة النساء، في المجتمعات الإسلامية للدلالة على أن الأمر القرآني المتعلق بالمعاملة العادلة للزوجات المتعددات عرضة للتنازل عنه، إذا لم يكن لإزالته بجدية كاملة:

﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء وإن حرصتم
فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلَّقة وإن تصلحوا
وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

إن هذا مثال جيد عن الطريقة التي أساء بها العديدُ من المسلمين فهم التعاليم والمواقف القرآنية الأساسية. في (السورة ٢: البقرة) يضع القرآن قانوناً يتعلق بكل الزيجات التي ستعقد في المستقبل والغرض منه

هو جعل الرجل واعياً لمسؤولياته الأخلاقية كزوج قبل أن يستمر في عقد عدة زيجات. وتشير (السورة ٤، النساء: ١٢٩) إلى الوضع الذي يكون فيه لدى الرجل عدة زوجات.

في مجتمعات ماقبل الاسلام كان تعدد الزوجات اللامحدود هو القاعدة بدلاً من كونه الاستثناء. ولم يكن هناك أي قانون أخلاقي ينظم معاملة النساء في مثل هذا الوضع. وكنتيجة لذلك كنَّ يقضين حياتهن بأكملها في بؤس وقلق حيث لم يكن لديهن وسائل التنبؤ بخيار الزوج ولم يكن لديهنّ وسائل لفرض حقوقهن عليه.

في (السورة ٤: النساء ١٢٩) يميّز القرآن أن الرجال كونهم بشراً لا يستطيعون معاملة عدد كبير من الزوجات بتساوٍ في كل الأوقات من كل الجهات (بخاصة مسألة الشعور والمودة)، لكن عليهم بذل ما في وسعهم لتأسيس علاقات مبنية على الصداقة والتفاهم مع النساء اللواتي تزوجوهم بحيث لا تشعر أي زوجة بعدم الأمن أو بأنها مخذولة ومهجورة. تُحثُّ الرجال على ممارسة كبح الذات أي الخضوع لقانون الله (المتطلب أن يكون الرجال عادلين مع زوجاتهم) وليس على مواصلة ميولهم الخاصة لصالح زوجة أو أكثر وإهمال البقية.

لكن تبعاً للعديد من «الفقهاء أو الأئمة» بما أن (السورة ٤، النساء: ١٢٩) تميز أن الرجال كمخلوقات بشرية لا يستطيعون أن يكونوا عادلين مع النساء [إنهم يتساءلون (يسألون) بلاغياً: «من يستطيع أن يكون عادلاً **مع النساء** »؟] وبما أن الله غفور رحيم فإن التأكيد في التعاليم القرآنية فيما يتعلق بالعدالة لكل الزوجات ليس مطلوباً على نحو صارم تام.

إن حقيقة أن القرآن يلاحظ ضعف الإنسان في اتخاذ موقفٍ متجملٍ بالصبر، قد تم أخذها من قبل العديد من المسلمين كتسويغ لتجاهل أمر معلن بوضوح ومؤكّد عليه بشدة. وفيما يخص الإشارة إلى

السماح بالزواج من «ما ملكت أيمانكم»، تجدر الإشارة إلى أنه مع أن القرآن قد سمح للرجال المسلمين الذين عاشوا في وقت نزول الوحي بالزواج من إمائهم بالإضافة إلى اثنين أو ثلاث أو أربع زوجات فإن هذا التدبير الاحتياطي يُطبَّق فقط على أولئك النساء اللواتي كن أَمَات (جمع أَمَةْ) في ذلك الوقت.

تؤكد التعاليم القرآنية بعدة طرق على أن المستعبدين (والمستعبدات) حتى قدوم الإسلام يجب إما إعتاقهم أو التغلغل تدريجياً في مجتمع المسلمين الأحرار بواسطة الزواج. في المستقبل لن تكون هناك ممارسة للرق (ولذلك فلن يكون هناك نساء أَمَات يُضَفن إلى عدد الزوجات المألوف) كما يشار إليه في (السورة ٤٧، محمد: ٤)(*) التي تقول أن أسرى الحرب إما أن يُعتقوا كمعروف (كمنّة) أو بفدية(١٠). (هنا من الممكن الإشارة إلى أنه كانت العادة الممَارَسة في مجتمع ما قبل الإسلام البدوي، أن أعضاء القبيلة المُهَاجَمة كانوا يؤخذون أسرى ويُعدُّوا للفدية فمن يفتدى منهم يصبحوا أحراراً والبقية ـ معظمهم من النساء ـ كانوا يجلبون إلى المدينة ويباعوا. ومن هنا فإن القرآن بفرضه إطلاق سراح أسرى الحرب مع أو بدون فدية، كان يقضي على جذور شر الرق).

من النقاش أعلاه يصبح من الخطأ الاعتقاد أن تعدد الزوجات مُوَّصى به في القرآن مع أنه من الممكن أن يكون خياراً شخصياً لعديد من الرجال المسلمين (أو بالنسبة لهذه المسألة للعديد من الرجال في العالم). وفي الواقع كان لتعدد الزوجات ضرر غير محدد لوضع النساء المسلمات لا يمكن إنكاره. لكن وكما يُرى في القرآن كان تعدد الزوجات يمارس لمصلحة النساء والأطفال وليس كوسائل لإشباع شهوانية وفسق الذكور أو لتعزيز الأنا الذكورية.

(*) [... حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّا وإما فداء...] (المترجمة).

إن حقيقة أن العديد من المسلمين قد حرَّفوا غرض القرآن لا يُلغي حقيقة أنه في كثير من الأوضاع[*١١] يكون تعدد الزوجات خياراً تفضله النساء العالة أو المعوزات أو المريضات بمرض مزمن أو المضرورات على الطلاق أو الهجر من قبل الزوج.

إذا نُظر إلى تعدد الزوجات كبديل ليس للزواج الأحادي (الزواج من واحدة) لكن للطلاق، فإنه يكتسب معنىً مختلفاً عن المعنى المتصل به عموماً. إنه لشيء جيد أن هناك العديد من البلدان الإسلامية قد وضعت قوانين لتقليص الممارسة الواسعة لتعدد الزواج.

يشجب «الفقهاء» تشريعات كهذه باعتبارها تشريعات «غير إسلامية»، لكن من الواضح أن تعدد الزوجات دون تقييداته المرافقة، ليس له تبرير في القرآن (وكان هناك وقت، منع فيه حتى النبي محمد (ص) من عقد أية زيجات أخرى[١٢]، بالرغم من أن سلوكه مع زوجاته كان مثالاً).

(*١١) كحالة زوجة مريضة مرضاً مزمناً وتفضل أن تكون زوجة ثانية على أن تكون مطلقة أو أرملة مع أطفال دون معين.

الفصل الخامس

المرأة وقضية العزل و «الحجاب» في الإسلام
(مع إشارة خاصة إلى الجدل حول «الشادور» في إيران ما بعد الثورة)

الإسلام حقيقة حية منذ مايزيد عن ألف وأربعمئة سنة، لكن استلزم حظر النفط في عام ١٩٧٣ والثورة الإيرانية ١٩٧٩ لإيقاظ العديد من «سباتهم الدوغماتي» وجعلهم يلاحظون حقيقة أن الإسلام لم يكن بالرغم من كل شيء ميتاً حقاً.

في يقظة ما سمي بـ «انبعاث» ما افترض بالإسلام الميت أو الذي يموت، طُرح العديد من الأسئلة عن الطبيعة الأساسية ونظام القيم والتطور التاريخي للطريقة الإسلامية في الحياة.

وليس من المفاجئ ونحن نعيش في غمرة ثورة أنثوية في الغرب أن الأسئلة المتعلقة بوضع النساء المسلمات بدت بوضوح ضمن الأسئلة التي سُئلت عن الإسلام. أحد أهم العوامل المسؤولة عن تركيز الانتباه على النساء المسلمات منذ نهاية السبعينات، كان دور النساء الإيرانيات في الثورة.

لايستطيع العديدون المنذهلون «المرتبكون» بالتباينات المروعة داخل عالم الإسلام، فهم الصُّور المتضاربة أو الملتبسة للنساء المسلمات التي أُبرزت من قبل وسائل الإعلام على نطاق واسع منذ الحركة الشعبية ضد الشاه في إيران. فبينما كانت الحركة تتوسع، بدأت النساء الإيرانيات ــ المتغرّبات وغير المتغرّبات ــ بلبس «الشادور» الأسود. دون شك كان

«الشادور» الأسود رمزاً سياسياً للتحدي ضد الشاه الذي حظر أباه «الشادور» بمرسوم في عام ١٩٣٦ وطبق مرسومه بوحشية صدمت وأهانت الملايين من التقليديين الإيرانيين. وفي هذا الصدد يصف الموقف أحد الكتاب الذين رأوا زوال «الشادور» في إيران:

«كنت في وقت أشاهد البوليس يمزق الأغطية الحريرية من على رؤوس النساء ويعيدونها لهن قطعاً ممزقة، أي شيء يشبه ولو قليلاً الحجاب كان ممنوعاً... لم يكن الرجال من يرغب أن تتحجب نساءهم بقدر ما كانت النساء أنفسهن هنَّ اللواتي تشبثن ببساطة (باحتشام) بعاداتهن القديمة»[١].

بتطبيق لِبْسِ «الشادور»، كانت النساء الثوريات الإيرانيات يرسلن رسالة سياسية مهمة جداً للشاه وحلفائه: أنهن لن يسمحن لطرقهن التقليدية أن تتلاشى بعادات وأزياء مستوردة، وأنهن سيطلبن التعويض (الثأر) عن الإهانات التي عاناها الشعب الإيراني عامة والنساء الإيرانيات بخاصة.

تماماً كما قام «الشادور» بدوره كرمز سياسي للوحدة، كان أيضاً يُرى كموازن للتباين الاجتماعي ـــ الاقتصادي. وبينما كانت الحركة المضادة للشاه تنتشر في الطبقات الاجتماعية المختلفة في إيران، بدأت النساء المتدرجات من أولئك اللواتي يرتدين الأزياء الغربية الأحدث والأغلى إلى اللواتي يرتدين الأزياء الأكثر تواضعاً، يشاركن في المسيرة. لقد أوجدت الفجوة الضخمة بين الموسرين والمعوزين في إيران (بخاصة في طهران) تهديداً حقيقياً لأي جهد في سبيل توحيد الشعب في نضال موحد. وهكذا فقد قام «الشادور» بدور رمزٍ للمساواة على الأقل مؤقتاً. طبعاً علمت النساء الثوريات الإيرانيات أن «الشادور» هو رمز ديني، وبينما بدأت الحركة الشعبية تعرّف نفسها أكثر وأكثر بتعابير دينية، أصبح «الشادور» يرى بشكل أوسع أكثر وأكثر كرمز هام لما كان القيمة الإسلامية الأساسية.

إنه من الضروري ربما من أجل المحافظة على القوة (الكثافة) المخلصة للحركات الثورية أن تكون مواضيعها الحائثة مُبَسَّطَة وواضحة، وأن تكون شعاراتهم ورموزهم محمية من أي تحقيق نقدي حرج فيما يتعلق بمعانيه المنطقية وتضميناته.

في رأيي أنه بينما قبلت كل النساء الإيرانيات تقريباً «الشادور» كونه «إسلامي» فإنهن لم يسألن في البداية ـ والعديدات لا يسألن حتى الآن ـ كيف ولماذا هو «إسلامي»؟ لقد وضعن «الشادور» كشعار قوي لتضامنهن مع ماضيهن ـ كما وضعته المرأة الإيرانية ـ كعلامة فخر لهويتهن الإسلامية، دون أن يدركن أن التقاليد التي كُنَّ يصورنها بطريقة رومانتيكية كانت عبوديةً وعبئاً على النساء.

هناك حاجة أيضاً لكلمة تُقال فيما يتعلق بلون «الشادور». يلبس الأسود تقليدياً للحداد عند المسلمين الشيعة. وفكرة الحداد مرتبطة بقرب مع فكرة الاستشهاد. وهكذا فـ «الشادور» الأسود الذي لبسته الملايين من النساء الإيرانيات خلال أشهر الثورة العنيفة لم يعكس فقط الحزن على موتاهن، بل كان أيضاً التزاماً جليلاً مقدساً بمتابعة نضالهن الخاص حتى الاستشهاد.

بالنظر إلى ما يمثله «الشادور» الأسود بلغة الماضي الحاضر والمستقبل للشعب الإيراني خلال الأشهر التي سبقت العودة الظافرة لآية الله الخميني المنفي إلى إيران، قد يبدو غريباً للعديد أنه عندما أُنجز الهدف العاجل للثورة ـ أي طرد الشاه ـ أصبح «الشادور» ـ فجأة ـ شيئاً جدلياً خلافياً جداً.

ما تلا صُوِّر بالكارتون والكاريكاتير كأسلوب ساخر للعداء بين النساء اللواتي استمرين في ارتداء «الشادور» واللواتي عدنَ إلى ارتداء الجينز دون «الشادور». وكانت قصص النزاع بين الزمرتين عناوين

للصحف لبعض الوقت، بينما أصرت العديد من الإيرانيات على أنه لم يكن إلا عملاً سياسياً مثيراً أو تكتيكياً مسبباً للخلاف وظّف من قبل «اليساريين» لإفساد تألق مجد الثورة الإيرانية. وتدريجياً اختفت القصص من الصحف وافترض أنه بطريقة ما قد تم حل المشكلة.

قبل أن أوضح ما أراه القضايا الأساسية التي تكوّن (سيناريو) «الشادور مقابل الجينز»، أرى من الضروري تقديم إفادة واضحة لِلْمُثُل والمعايير الإسلامية المتعلقة بموضوع كيف يجب على المرأة المسلمة أن ترتدي وتتصرف في الأماكن الخاصة والعامة. تأتي ضرورة القيام بمثل هذه الإفادة من حقيقة أنه على الرغم من كون «البُرْدة» ـ مصطلح عام يشير إلى عزلة النساء أو فصلهن عن الرجال و«حجابهن» ـ من أكثر المبادئ الإسلامية المُعلن عنها بشكل بالغ، التي تستدعي استجابات تتدرج من اعتباره شيئاً ساحراً بشكل كلي إلى اعتباره شيئاً بغيضاً بشكل كلي. قلة تفهم معناه تبعاً للرؤية النظرية للإسلام. أحد أسباب النقص في الفهم هذا يعود إلى وجود قدر كبير من التشويش فيما يتعلق بمعنى وغرض المصطلح «إسلام».

إذا سئل مسلم عادي ماذا يفهم من الإسلام فالأكثر احتمالاً أنه سيشير إلى واحد أو أكثر من التالي: القرآن، السُّنة، الحديث، المذاهب الفقهيه (مدارس الفقه) والشريعة (مدونة القوانين المنظمة لجميع مظاهر الحياة الاسلامية). إذا شكلت كل المصادر المذكورة آنفاً جسماً منسجماً مترابطاً من المعلومات، عندها يمكن أن نضمنها جميعاً في مصطلح «إسلام». لكن هذا بعيدٌ جداً عما هو عليه الحال. ليس فقط هناك مشكلات عديدة من التناقض الداخلي في نطاق الحديث والسُّنة والمذاهب مثلاً، بل أيضاً هناك العديد من التعارضات بين «مصادر» الإسلام المختلفة.

قبل أن يستطيع المرء أن يتكلم كلاماً ذا معنى عمّا هو «إسلامي»، عليه أن يصرِّح بالذي يعنيه بمفهوم «الإسلام».

من أجل غرض هذه الورقة، أُعرِّف الإسلام» على نحو صارم بلغة ما يحتويه القرآن. أفعل ذلك لأن مركزية القرآن بالنسبة لرؤية العالم الإسلامي والنظام العقيدي غير قابلة للنقاش. أيضاً بسبب الاعتقاد المسلم بأن القرآن هو كلمة الله نُقلت بواسطة الملك جبريل عليه السلام إلى النبي محمد (ص) وبُثّت بواسطته دون خطأ أو تغيير إلى من سمعه. إن درجة الموثوقية والصحة والأصالة التي يمتلكها القرآن «مطلقة»، بينما موثوقية وأصالة بقية «مصادر» الإسلام هي ـ على الأقل نظرياً ـ «نسبية».

في سياق الكلام عن الزي والسلوك المناسب، يضع القرآن مبدأ أساسياً يمكن أن يوصف كمبدأ أو قانون البساطة والتواضع والاحتشام. في (السورة ٢٤، النور ٣٠ـ٣١) يُفرض التواضع والاحتشام على كل من النساء والرجال المسلمين:

> ﴿**قل للمؤمنين** يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون. **وقل للمؤمنات** يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا **يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها و ليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن** إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء **ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهن** وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾[٢].

اعتماداً على الآيات السابقة يمكن ملاحظة النقاط التالية:

١ـ إن الأمر القرآني الذي يفرض على المؤمنين أن يغضوا أبصارهم وأن يتصرفوا باحتشام ينطبق على كل من الرجال والنساء المسلمين وليس على النساء المسلمات فقط.

٢ ـ فُرض على النساء المسلمات أن «يضربن بخُمُرِهِنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهنّ» إلاّ في حضور: أزواجهنّ، النساء أخريات، الأطفال والرجال المتصلين بهنّ بشكل قريب وغير مسموح لهم بالزواج منهن. بالرغم من أنّ العرض الواعي لزينة المرء محرّم، إلاّ أنّ القرآن يجعل واضحاً أنّ ما ترتديه المرأة عادة مسموح.

هناك تأويل آخر لهذا المقطع من النّص هو أنه إذا كان عرض الزينة غير متعمّد أو بالصدفة فإنّه لا يتعارض مع قانون الاحتشام[٣].

٣ ـ مع أن النساء المسلمات قد يستطعن ارتداء الزينة إلاّ أن عليهنّ ألاّ يمشين بطريقة تجعل زينتهنّ تجلجل (تخشخش) وتلفت انتباه الآخرين.

عند هذه النقطة قد تسأل امرأة «متحررة »: لماذا يجب أن تعرض زينتها فقط في حضور أولئك (بالإضافة إلى زوجها) الذين على الأرجح ليس لديهم أي اهتمام جنسي فيها؟ إن جواب هذا السؤال محتوى في النظرة القرآنية للمجتمع المثالي والقيم الأخلاقية والاجتماعية التي يجب الأخذ بها من قبل كلٍّ من الرجال والنساء المسلمين. في التعابير القرآنية، المجتمع المثالي هو الذي تتحقق فيه العدالة للجميع، أي العدالة بين الرجل والرجل وما هو أكثر أهمية، العدالة بين الرجل والمرأة (إنه من الهام أن

نلاحظ أنَّ هناك تشريعات في موضوع التنظيم المناسب، كعلاقة الرجال والنساء أكثر من أي موضوع آخر). وإذا كانت نسبة جيدة من التشريعات القرآنية المتعلقة بالنساء تهدف إلى حمايتهن من عدم المساواة والممارسات القاسية الفاسدة بحقهن (مثل وأد البنات، تعدد الزوجات غير المحدود، المعاشرة غير الشرعية...إلخ) التي كانت منتشرة في القرن السابع في الحجاز، فإن الهدف الرئيسي للتصريحات القرآنية المتعلقة بالنساء هو تأسيس المساواة الأساسية بين الرجل والمرأة في نظر الله الذي خلق كلاهما بطريقة مماثلة من جوهر متماثل، وأعطى كلاً منهما الحق في تطوير إمكانياته.

تبعاً للقرآن، فإنّ أعظم عطايا الله للنوع الإنساني ـ الذي رفع المخلوقات الإنسانية ليس فقط فوق الحيوانات كما قال اليونانيون بل وفوق المخلوقات السماوية (العلوية) ـ هي الحرية والإرادة المستندة إلى المحاكمة ليصبح إنساناً حراً عقلانياً منطقياً وهو الهدف المهيّأ للكائنات الإنسانية. لكن النساء في فجر الإسلام كنّ بعيدات جدّاً من أن يدركن هذا الهدف.

كان يُنظر إليهنّ كأهداف جنسية تستعمل كدمى إغراءات تُباع وتُشترى، يُسدَّد إليهنّ ويُطرحن عند الرغبة. حتى أنّه من الممكن قتلهنّ والإفلات من العقوبة.

وباستخدام شبكة قوانين وتوصيات مُحكمة مُفصّلة، هَدَفَ القرآن إلى تحرير النساء من ذل وإهانة كونهنّ أهداف جنسية وتحويلهنّ إلى بشر.

إذا كانت رغبة المرأة أن يُنظر إليها كإنسان وليس كهدف جنسي فإنه من الضروري ـ تبعاً للتعاليم القرآنية ـ أن تتصرف بكرامة ووقار ولياقة تليق بمخلوق إنساني واثق، محترم النفس، واعٍ لذاته، بدلاً من أُنثى

متزعزعة تشعر بأن بقاءها يعتمد على قدرتها على جذب وتسلية وتملُّق أولئك الرجال الذين لا يهتمون بشخصيتها بل فقط بجنسها.

إن عدداً من القوانين القرآنية المتعلقة بالنساء والتي أُوِّلت من قبل نقاد الإسلام على أنّها مُقيدة لحرية النساء، وُجِدَت في الحقيقة، لتحمي ما هو في رأي القرآن حقوق المرأة الأساسية. على سبيل المثال تقول الآية٥٩ من سورة الأحزاب:

﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين
يدنين عليهن من جلابيبهنّ ذلك أدنى أن يُعرفن فلا
يؤذين وكان الله غفوراً رحيما﴾[٤].

مع أن هذه الآية موجّهة في المقام الأول لزوجات وبنات النّبي (ص) لكن ــ كما أشير إليه من قبل R. C. Antoun: «بما أن النّبي (ص) وزوجاته كانوا قدوة في السلوك لكل الرجال والنساء المؤمنين الأتقياء فإن المعايير الموضوعة هنا ذات أهمية عامة»[٥].

علاوة على ذلك فإن في الآية المستشهد بها إشارة أيضاً إلى «النساء المؤمنات»، ولذلك فقد فُهمت بشكل عام في المجتمعات المسلمة بأنها مخصصة لكل النساء المسلمات. لكن وبينما طُبّق ضغط كبير على ارتداء النساء «الثوب الخارجي»(الجلباب) عندما تكون في أماكن عامة، لم يُوَّفَ السبب في هذا الغرض القرآني حقّه من التفكير.

تبعاً للنص القرآني فإن السبب الداعي لارتداء النساء المسلمات للثوب الخارجي عندما يخرجن من منازلهنّ هو حتّى **يستطاع تمييزهنّ كنساء «مؤمنات» مسلمات** وتفريقهن عن المومسات اللواتي يعتبرن المضايقات والتحرشات الجنسية بالنسبة لهن مجازفة مهنية. لم يكن الهدف من هذه الآية حجز المرأة في بيتها، بل لجعل تجوالها ــ من أجل قضاء أعمالها اليومية ــ آمناً دون جذب انتباه فاسد مؤذ. كان الحكم القرآني بأن يُرتدى «الثوب الخارجي» (الجلباب) كعلامة تعريف للنساء

المسلمات «المؤمنات». وهكذا من الواضح أنه كان هنالك حاجة في ذلك الوقت للتصريح القرآني الذي وفقاً له يمكن للمرأة المسلمة «المؤمنة» أن تُميَّز من سواها.

في المجتمعات التي لا وجود فيها لخطر خلط النساء المسلمات «المؤمنات» مع أخريات، أو حيث لا يقوم «الجلباب» بدوره كعلامة تعريف للنساء المسلمات «المؤمنات»، فإن مجرد ارتداء «الجلباب» لن يفي الهدف الحقيقي من القرار القرآني.

إنه لن يكون ذا جدوى أن النساء المسلمات الأكبر سناً «اللاتي لا يرجون نكاحاً» لم يطلب منهن ارتداء «الجلباب»:

﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً **فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن** خير لهن والله سميع عليم﴾[٦]

(سورة النور: ٦٠).

إن النساء اللواتي هنّ بحكم تقدمهنّ في السّن غير قابلات للنظر إليهنّ كأهداف جنسية، مسموح لهنّ أن يطرحن«الجلباب». لكن ليس هناك تراخ طالما أن المبدأ القرآني الأساسي للاحتشام في التصرف محفوظ بغضّ النظر عن السنّ أو الجنس. هذا المبدأ القرآني ـ كما كل المبادئ لما يصطلح به دين الإسلام ـ هو بالنسبة للمسلمين ثابت لا يتغير.

إن التفكير بالآية السابقة يظهر أن «الجلباب» ليس مطلوباً من القرآن كتعبير ضروري للاحتشام طالما يميز إمكانية استمرار كون النساء محتشمات حتى عندما يطرحن (يخلعن) «الجلباب».

لكن المجتمعات المسلمة بشكل عام لم تكترث بالقصد الرئيسي للتصاريح القرآنية التي تعتبر النساء مخلوقات إنسانية قادرة إن تكون فاضلة صالحة كتصرف عن اختيار ولسن مخلوقات عقل ودين يجب أن تُفرض الفضيلة عليهن خارجياً.

دون الاكتفاء بـ «الثوب الخارجي» الموصوف للنساء المسلمات في سياق حضاري معين، نَشَدَ المسلمون المحافظون مساعدة الأحاديث المنسوبة إلى النبي (ص) لإجبار النساء على تغطية أنفسهن من الرأس وحتى القدم. مطالبين أن على المرأة أن تغطي وجهها(٧٠). إنه ليس هدف هذه الورقة إيراد الأحاديث التي تدعم فكرة تحجب النساء الكلّي أو شبه الكلي وتقييم درجة صحتها.

يكفي القول أنه تبعاً للنظرية الإسلامية، من غير الممكن لأي حديث أن يبطل القرآن في أي حالة كانت. وهكذا إذا كان من الممكن أن يُرى أن الأحاديث التي نحن بصددها في تناقض مع المعنى الأساسي أو الغرض من التعليم القرآني فإنها لا تلزم المسلمين.

بالتأكيد لا يوجد في القرآن تصاريح تبرر التقييدات القاسية المبالغ فيها فيما يتعلق بالحجب والعزل الذي فُرض على النساء المسلمات من قبل العديد من المجتمعات المسلمة.

ولا يسعني إلاَّ أن أطرح سؤالاً واحداً قصيراً أمام هؤلاء الذين يشكّون: إذا كان القرآن يقصد تحجيب النساء كلياً لماذا إذن أُمِرَ الرجال أن «يغضوا من أبصارهم»؟

كثير من المجتمعات المسلمة اعتادت ليس فقط دفن النساء في أثواب مثل «البرقع» الذي يلبس في شبه القارة الهندية ـ الباكستانية، ولكن حجز النساء في بيوتهنّ رغم أنه في (السورة ٤، النساء: ١٦) يصف القرآن مثل هذا الحجز كعقاب للنساء المذنبات بعمل لا أخلاقي وليس كطريقة طبيعية في الحياة(٨).

(٧٠) أبو الأعلى المودودي الباكستاني هو من أكثر المتشددين في موضوع التحجب الكلي للنساء المسلمات. وكان لكتابه (البردة ووضع المرأة في الاسلام) تأثيراً كثيراً في العديد من البلاد الاسلامية وبين المعتنقين الجدد للاسلام.

﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهنَّ أربعة منكم فإن شهدوا فامسكُوهُنَّ في البيوتِ حتى يتوفّاهن الموتُ أو يجعل الله لهنّ سبيلا﴾.

ذكر القرآن أيضاً أمثلة عدة عن نساء أو رجال مسلمين يتصلون فيما بينهم ولم يحظر مثل هذه الاتصالات إذا لم تكن تحمل إيحاءات انحلال أو خلاعة.

بالنظر إلى الموضوع من موقف مناسب وبالاهتداء بالإدراك والفهم النظري للإسلام، لنعد إلى (سيناريو) «الشادور مقابل الجينز» في إيران ما بعد الثورة. لقد زرت إيران في شباط ١٩٨٠ كعضو وفد مفوض مسلم من الولايات المتحدة دُعي للمشاركة في الاحتفالات في الذكرى السنوية الأولى للثورة الإيرانية وبداية القرن الخامس عشر (الهجري) للإسلام. خلال هذه الزيارة كانت لديَّ الفرصة لأتحدث مطولاً مع العديد من النساء الشابات اللاتي كنّ مضيفاتنا ودليلاتنا. درس معظمهنّ في الولايات المتحدة وانتمين سابقاً إلى الجزء «المتغرّب Westernized»[٢٢] من الشعب الإيراني. ارتدت بعضهنّ الجينز لكن أيضاً مع غطاء الرأس الذي أصبح الآن مقبولاً بشكل شائع كبديل عن «الشادور» الصعب التحريك الذي لبسنه أثناء الثورة. شاهدتُ العديد من النساء وخصوصاً في طهران لم يلبسن لا «شادور» ولا «وشاح» لكن لم أرَ امرأة واحدة سواء في طهران أو في أي منطقة أخرى أو في الريف الإيراني دون غطاء رأس وتُشارك أيضاً في النشاطات المرعية من الحكومة الثورية الإيرانية. كان من الواضح لأي مشاهد أنه إذا أرادت المرأة الإيرانية أن تكون جزءاً من الجهد المبذول لبناء بلدها يجب أن تطيع متطلبات ارتداء ثوب «إسلامي» والذي عنى بشكل أساسي تغطية الرأس. إذاً أصبح ارتداء «الشادور» في إيران ما بعد الثورة أكثر

المعايير أهمية، ليس فقط لتقييم ولاء المرأة لتقاليدها الدينية بل أيضاً لتقييم ولاءها لوطنها.

كان عدم ارتداء «الشادور» يُر ى بطريقة ما كمعادل لخيانة الثورة والذي كان أقل قصاص له الأبعاد عن النشاطات «الوطنية».

أنواعٌ أخرى من القصاص تطبق أيضاً في أوقات أخرى. على سبيل المثال أخبرني صحفيّين بلجيكيّين أمضيا عدة شهور في إيران ما بعد الثورة، أنه في تموز ـ آب ١٩٧٩ فرّق حرّاس الثورة مظاهرات شاركت فيها عدة آلاف من النساء لايرتدين «الشادور» وضربوا النساء المتظاهرات بالعصي. سُجِّلَتْ أيضاً حوادث عنف أخرى ـ بما فيها التشويه برمي الأسيد ـ تجاه النساء غير الممتثلات. بالرغم من أن النساء الإيرانيات، مرتديات الجينز ومدخنات السيكارة قد أوقفن ظاهرياً احتجاجاتهن ضد عبء «الشادور» خوفاً من الانتقام، استمرت النساء مرتديات «الشادور» في إيران بعد الثورة باستخدام خطاب الثورة الطنان المثير للعواطف لإقناع أنفسهن والأخريات بأنهن ارتدين «الشادور» عن اختيار وطيبة خاطر دون أي إكراه. هل كنّ ليلبسنّه إذا لم يوجه آية الله الخميني ميلاً كبيراً لارتدائه وإذالم يُعتبر عدم الامتثال جرماً من الصعب فهمه؟ انه سؤال لم يُسْأَل بصراحة في إيران بعد الثورة لكن ربما كان السؤال بلاغي (متكلف) من حيث الجوهر ولا يحتاج إلى جواب. عندما نزع والد الشاه «الشادور» عن النساء الإيرانيات كان يعتقد أنه يحررهنّ من قيد التقليدية. وعندما أعاد آية الله الخميني «ا لشادور» للنساء الإيرانيات كان يعتقد أنه كان يحررهنّ من عبء كونهنّ أهدافاً جنسية. في رأيي لم يحرر لا الأول ولا الثاني المرأة الإيرانية، لأنه لا الأول ولا الثاني خلق مجتمعاً عدلاً تستطيع أن تكون فيه المرأة شخصاً مستقلاً وأن تتولى المسؤولية من أجل حياتها وقراراتها الخاصة. إن الفكرة الإسلامية للنسوية ليست هي الدمية العابثة التي ترفض كل الأخلاق، ولا المرأة المحجبة المتشبثة بالتقليد.

من أجل أن نفهم الفكرة الإسلامية عن النسوية، يجب أن نفهم الإسلام بعمق وشمولية. ما هو مأساوي جداً بشأن نساء إيران مرتديات «الشادور»، أنه ليس جديداً جداً بل أنه قديمٌ جداً. الحجج المستعملة من قبل النساء الإيرانيات بعد الثورة لتبرير ارتداءهنّ «الشادور» استعملت لمئات السنين من قبل المحافظين الذين كرسّوا التمجيدات والإطراءات على «البردة المقدّسة التي تنتهك حرمتها»[٩].

كان على أعظم مفكري الاسلام الحديث **محمد إقبال** أن يضع في مواجهة مثل هؤلاء المحافظين، دفاعه الصريح والانفعالي الغاضب عن حق المسلم في ممارسة "الاجتهاد":

«خوفاً من.. الانحلال، ركز مفكروا الإسلام المحافظون كل جهودهم على نقطة صون نظام حياة الناس الاجتماعية بـإقصاء حذر لكل التجديدات والابتكارات لقانون الشريعة كما قدم من قبل علماء الدين الإسلام المبكرين. إن فكرتهم الرئيسية كانت نظاماً اجتماعياً ولاشك بأنهم كانوا على حق جزئياً لأن التنظيم إلى حد معين يُبطل قوى الانحلال. لكنهم لم يروا وعلمائنا الحاليون لا يرون أيضاً أن المصير الجوهري الأقصى للناس لا يعتمد كثيراً على النظام بمثل اعتماده على قوة واستحقاقية الأشخاص الأفراد. في مجتمع منظم إلى حد مبالغ فيه يسحق الفرد تماماً خارج الوجود...»[١٠].

إن إغلاق باب الاجتهاد هو خيال محض اقتُرِحَ جزئياً بسبب تبلور التفكير الشرعي في الإسلام، أو بسبب الكسل الفكري الذي يحوّل ــ وبخاصة في فترة اضمحلال روحي ــ مفكرين عظام إلى أشباح وأوهام. وإذا أيّد بعض علماء الدين هذا الخيار فإن الإسلام الحديث غير ملزم بهذا الاستسلام الإرادي الاختياري للاستقلال الفكري[١١]. وبما أن الحال قد تغيرت وأن عالم الإسلام اليوم يُقابل ويتأثر بقوى جديدة أُطلقت بالتطور الاستثنائي فوق العادي للتفكير الإنساني في كل

> الاتجاهات، فإني لا أرى سبباً لاستمرار المحافظة على هذا الموقف (موقف علماء الدين)... إن مطالبة الجيل الحديث للمسلمين المتحررين بـإعادة تأويل وتفسير المبادئ الوظيفية العملية الشرعية في ضوء تجربتهم الخاصة والظروف المتبدلة للحياة الحديثة هو برأيي مبرّر ومُسَّوغ تماماً. **إن تعاليم القرآن تقول أن الحياة هي طريقة خلق تقدمي تستلزم أن كل جيل مهتد بعمل السلف لكن من دون أن يعرقله أو يقيده أو يشوشه ذلك، يجب أن يسمح له بحل مشاكله الخاصة»**(١٢).

أخيراً، كلمة حول عُرْف «البُرْدة» بشكل عام: بالرغم من أن عدداً من علماء الاجتماع قد قاموا بعمل مفيد في تحليل العوامل الثقافية الحضارية والاجتماعية ـ الاقتصادية المرتبطة بـ «البردة»، لكن حتى الآن لم يقم أياً منهم بدراسة نفسية مفصلة عن سبب قلق المجتمعات المسلمة (كما هي ذكورية الميل وذكورية السيطرة) واستبداد الهواجس فيها من الجنسانية الأنثوية ووسائل التحكم بها والسيطرة عليها. إن لمثل هذه الدراسة ضرورة عاجلة قد تساعد في فهم وشرح عدم الإيمان العميق الذي يشكل أساس القسوة والقيود التي يغطي ويعزل معظم الرجال المسلمين نساءهم بها.

الفصل السادس

النساء المسلمات:

والحقوق الاقتصادية

بـإدراك حالة الضرر والحرمان التي عانـت منها النساء في مجتمع الحجاز في القرن السابع [الموروثة من الانحيازات المضادة للنساء، الموجودة في الأعراف الدينية **اليهودية والمسيحية والتقليد الفكري اليوناني الهيليني** بالإضافة إلى الحضارة البدوية قبل الإسلامية]، فرض القرآن إجراءاتٍ ومعاييرَ كثيرة لضمان صون الحقوق الإنسانية الأساسية للنساء. ومن ضمن هذه الحقوق كان الحق الاقتصادي ذا أهمية قصوى. وبصدده أشار قاسم أمين المُطالب بالمساواة بين الجنسين في مستهل عمله في تحرير النساء في الإسلام، إلى أنه لن يكون هنـاك حرية واستقلال دون الاستقلال الاقتصادي. من ضمن التعاليم التي ألقت ضوءاً قوياً وأكدت على الرؤية القرآنية للنساء والرجال كمخلوقات لله متساويين وكأعضاء متساويين للأمة الإسلامية المساواتية، يمكن أن تكون الأمور التالية ذا أهمية خاصة:

حق المرأة في العمل وفي الكسب

تبعاً للتعاليم القرآنية لكل رجل وامرأة الحق في العمل، سواء كان العمل وظيفة مُكسبة أو خدمة طوعية: إن ثمار العمل تعود لمن عمل من أجلها، بغض النظر أكان رجلاً أم امرأة. تقول (السورة٤: النساء ٣٢):

﴿... للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن﴾.

الرجال مطالبون بدعم أعمال (وظائف) النساء الخاصة

يدرك القرآن ويقدر أهمية الوظائف الخاصة التي تؤديها النساء اللاتي، وحدهن يستطعن ولادة الأطفال، واللاتي يقضين وقتاً مهماً من حياتهن في إرضاع ورعاية أطفالهن. مع أن الآية ٣٤ من سورة النساء التي تبدأ بالكلمات «الرجال قوامون على النساء» قد استخدمت دوماً لرفع الرجال إلى وضع «الحاكم المهيمن» وخفض النساء إلى وضع «المحكوم»، لكن قَصْدَ الآية القرآنية هو تأمين الحماية للنساء. يؤمر الرجال للقيام بدورهم ككاسبي رزق أو عاملين مقابل أجر بحيث لا يكون على النساء عبء كسب العيش أثناء تأديتهن وظيفة حمل وتنشئة الأطفال العصيبة والهامة. ما يجب ملاحظته هو أن القرآن يخصص فعل «قوامون» [جذر الكلمة قام أي يعيل ويقوم بنفقة، يعين ويسند] لكل «**الرجال**» وليس فقط للأزواج مما يعني أن هذه الآية تقوم بتوزيع أساسي للعمل في الأمة المسلمة من أجل المحافظة على صحة المجتمع جسمانياً وعقلياً. إنه من الضروري أن تقسم الوظائف الأساسية في الحياة بين الرجال والنساء بعدل.

لا شيء أكثر عدلاً ـ بينما تؤدي النساء وظائفهن المتعلقة بأمومتهن ـ من أن يعطيهن الرجال الدعم الذي يحتجنه.

الأمهات المرضعات مخولات بإعالة مناسبة

يجعل القرآن واضحاً أن مسؤولية إعالة الأمهات المرضعات بشكل ملائم تقع على كاهل والد الطفل الرضيع، وعلى وارثي الوالد إذا كان

ميتاً. كما يصرح على نحو بيِّن أنه يجب ألا يستغل أيٌّ من الوالدين الآخر بسبب الطفل، وان لكلا الوالدين ـ بموافقة متبادلة ـ الحق في تقرير فيما إذا كان ينبغي إرضاع الطفل من قبل أحد غير الأم [يتضمن في مجتمعات اليوم المسلمة أن يوافق كلا الوالدين على إرسال الطفل إلى مركز رعاية نهاري أو مدرسة للتربية والتعليم...]، والنص المتعلق بذلك:

﴿والوالدات يُرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تُضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما إن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما أتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾

(سورة البقرة: ٢٣٣).

تدبير احتياطي للنساء المطلقات

ليس فقط في سياق الزواج، بل أيضاً في سياق الطلاق أوصى القرآن بموقف عدل ولطف تجاه النساء كما يرى من النصوص التالية:

﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولاتمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه...﴾

(سورة البقرة: ٢٣١)

﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تَمَسُّوهُن أو تَفْرِضوا لهنَّ فريضةً ومتِّعوهن، على المُوسِع قَدَرُهُ

وعلى المقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين(*) وإن طلقتموهن من قبل أن تَمَسُّوهُن وقد فَرَضْتُم لهُنَّ فريضَةً فنصفُ ما فرضتم إلا أن يعْفونَ أو يعفوَأ الذي بيدهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ وأَن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسَوا الفضل بينكم إنَ الله بما تعملون بصير﴾

(سورة البقرة: ٢٣٦-٢٣٧).

﴿وللمطلقات متاعٌ بالمعروف حقاً على المتقين﴾

(سورة البقرة: ٢٤١).

وكذلك: (السورة ٤: النساء ٢٠)، (السورة ٣٣: الأحزاب ٤٩)، (السورة ٦٥: الطلاق ١-٢ ، ٦-٧).

النساء والميراث

ان أحد أكثر تعاليم القرآن ثورية، هو أن المرأة يجب أن ترث من جميع أقربائها المقربين. لم يعطِ أي دين قبل الإسلام مثل هذا الحق للنساء، لكن هذا الحق يتم تنفيذه بشكل منقوص في المجتمعات المسلمة[حيث في الواقع العديد من النساء لا يتلقين ميراثهن الصحيح] . إن البيان القرآني في الآية الآتية ذا أهمية قصوى في سياق حقوق النساء المسلمات الاقتصادية:

﴿للرجال نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو أكثر نصيباً مفروضا﴾ (السورة٤: النساء٧).

سوء الفهم المتعلق بحصة النساء في الميراث

يعتقد العديد من المسلمين أن حصة النساء في الميراث هي نصف حصة الرجال. إن هذا ليس صحيحاً في كل الحالات. حصة الابنة تساوي نصف حصة الابن، وتساوي حصة الزوجة نصف حصة الزوج لكن إذا لم يكن للشخص الميت أولاد وكان والداه الوارثين الوحيدين فإن حصة أمه تساوي ضعف حصة أبيه. وحصة الأخت تساوي حصة الأخ. وهكذا فإنه في بعض الحالات تتساوى حصة الرجل والمرأة وهذا من الممكن أن يُرى في (السورة ٤: النساء ١١ـ١٢).

من الضروري أن نلاحظ أن القرآن في سياق الحديث عن الميراث آخذاً بعين الاعتبار الحقائق الاقتصادية للقرن السابع في الحجاز قد ألقى مسؤوليات إعالة العائلة على الرجال الذين يفوق حملهم الاقتصادي لذلك، حمل النساء اللواتي أعطين من ناحية أخرى الحق في وراثة كل أقاربهم الذكور (أب، أخ، زوج).

إنه من الضروري أيضاً ملاحظة أن الميراث يُوزع طبقاً للنسب المذكورة في القرآن بعد تنفيذ وصية الشخص المتوفى وبعد إيفاء ديونه. وإذا خشيَ الأب ألا يقوم ابنه على نحو ملائم بإعالة ابنته المعتمدة عليه يستطيع أن يعيلها بنفسه وذلك بأن يوصي لصالحها أثناء حياته. إذا فُهِمَت التوصيات القرآنية بشأن الميراث في سياقها التاريخي والحضاري فإنها في الحقيقة لا تميِّز ضد النساء وإذا نُفذت على نحو صحيح فسوف تقرر بشكل كبير إمكانيات النساء الاقتصادية.

النساء والقرآن

حقوق النساء تبعاً لتعاليم القرآن

١ ـ حرمة الحياة: لقد منح القرآن النساء حقوقاً كثيرة منحها حق الحياة وجعله مقدساً لايجوز مسّه:

﴿وإذا الموؤودة سُئِلَتْ، بأي ذنب قُتِلَتْ﴾

(سورة التكوير: ٨ـ٩).

﴿ولاتقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم ولاتقربُوا الفواحش ماظهر منها ومابَطَنَ ولاتقتلوا النَّفْسَ التي حرّم الله إلّا بالحق﴾

(سورة الأنعام: ١٥١)

٢ ـ ركّز القرآن على أهمية حياة الفرد وساوى بين قتل الفرد وقتل الجميع كما ساوى بين أحياء النفس البشرية وإحياء المجتمع كله:

﴿... من قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ...﴾ (سورة المائدة: ٣٢).

٣ ـ كرّم كل المخلوقات الإنسانية وفضلهم على كثير من مخلوقاته:

﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلا﴾ (سورة الإسراء: ٧٠).

٤ ـ أعطى الانسان خلقة رفيعة:

﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم﴾

(سورة التين: ١٤)

٥ ـ ركز القرآن على أن الناس متساوون ولاينبغي لأحد أن يفخر على أحد أو يبتعد عنه فهم جميعاً من نفس واحدة:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدةٍ وخلَقَ منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءَلونَ به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا﴾ (سورة النساء:١).

﴿وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحدةٍ فمستقرٌ ومستودعٌ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾

(الأنعام: ٩٨)

﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسْكُنَ إليها...﴾ (الأعراف: ١٨٩)

٦ ـ خلق الله جميع الكائنات الإنسانية بطريقة متماثلة: وهكذا ففي سياق الخلق لافرق أبداً بين المرأة والرجل. مثلاً (السورة ١٦، النحل:٤)؛ (السورة٢٢،الحج:٥)، (السورة٢٣، المؤمنون: ١٢ـ١٤)، (السورة٣٠، الروم: ١٩ـ٢٠)؛ (السورة ٣٢، السجدة: ٧ـ٩)...إلخ.

٧ ـ المرأة ليست مسؤولة عن خروج الإنسان من الجنة: (السورة ٢: البقرة ٣٦)، (السورة ٧: الأعراف ٢٠ـ٢٥).

٨ ـ أعطى الله الإنسانية نعمة الكلام: يشير القرآن إشارة خاصة إلى حقيقة أن الله خلق الإنسانية وأعطاها نعمة (ملَكة) الكلام. إن إمكانية الفهم والإدراك والنطق والتعبير عن الأفكار والمشاعر والتي

هي صفة تمييزية للنوع الإنساني وهي مشتركة بشكلٍ متماثل بين الرجل والمرأة، ولذلك فإن فكرة أن على المرأة أن تكون صامتة والتي شُدِّد عليها في التقليد المسيحي، غير مؤيدة في القرآن الذي ينظر إلى كل من المرأة والرجل كمستقبلي نعمته الخاصة أي: المقدرة على التفكير المنطقي وقدرة التعبير الذاتي.

٩ ــ النساء والرجال الصالحين سيكافؤون بشكل متساوٍ من قبل الله: مثلاً:

﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى...﴾

(السورة ٣: آل عمران: ١٩٥)

﴿من يعمل من الصالحات من ذكر وأنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾

(السورة ٤: النساء ١٢٤)

وانظر كذلك: (السورة١٦، النحل: ٩٧)، (السورة٣٣، الأحزاب: ٣٥).

١٠ ــ هدف الله من خلق رفيق للرجل: المرأة، مثلاً (السورة ٧ ، الأعراف: ١٨٩) (السورة٢١، الروم: ٢١).

١١ ــ للرجال والنساء علاقة متبادلة: مثلاً (السورة ٣، آل عمران:١٩٥) (السورة ٩، التوبة: ٧١).

١٢ ــ علاقة الزوج والزوجة: مثلاً (السورة ٢، البقرة: ١٨٧): [...نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن] .

١٣ ــ معاملة الزوجات: يُظهر القرآن الوضع الذي كانت فيه النساء في المجتمع العربي قبل الإسلام، وجاء بالعديد من الوصايا الهادفة

لحمايتهن من الاضطهاد والظلم: مثلاً (السورة ٤، النساء: ١٩):

﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تفصلوهن لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ .

١٤ ـ لا ينظر للنساء كأهداف جنسية، يُنْتَهَكْن: عبر التاريخ الإنساني نُظر للنساء كالمُلك المنقول يباع ويُشترى، يغتصب ويعامل بوحشية. يمنع القرآن بشكل مشدد أن تعامل النساء كأهداف جنسية تُملك وتُنقل من رجل إلى آخر. أيضاً في النص التالي مثلاً يُمنع السلب في سياق الزواج :

﴿لايحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً...﴾

(السورة ٤، النساء: ١٩)

١٥ ـ يجب عدم إجبار النساء الفقيرات على البغاء: مثلاً:

﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً﴾

(السورة ٢٤، النور: ٣٣)

١٦ ـ حق النساء في العمل والكسب: مثلاً:

﴿للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن...﴾ (السورة ٤: النساء)

١٧ ـ إشارة للأمومة: يميز القرآن الألم والصعوبة المتعلقة بالولادة والرضاعة مثلاً:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً...﴾

(السورة ٣١، لقمان: ١٤)

إن احترام الأمومة تتضمن أيضاً الأخذ بعين الاعتبار أن الأمهات يرضعن أطفالهن لمدة تتراوح من سنتين إلى سنتين ونصف وخلال هذه الفترة يجب أن لا يتحملن عبء حمل آخر مما يضر بصحة الأمهات المرضعات والأطفال الرضع.

١٨ ـ على الرجال أن يدعموا وظائف النساء الخاصة مثلاً (السورة ٤، النساء: ٣٤).

١٩ ـ الأمهات المرضعات مخولات بعناية خاصة مثلاً (السورة ٢، البقرة: ٢٣٣).

٢٠ ـ حق النساء في الطلاق مثلاً:

﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً وإعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ (السورة ٤، النساء: ١٢٨).

٢١ ـ شروط وتدابير للنساء المطلقات مثلاً (السورة ٢، البقرة: ٢٣١ ٢٣٦ـ٢٣٧، ٢٤١):

﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾

(السورة ٤، النساء: ٢٠)

٢٢ ـ النساء والميراث وخطأ الفهم فيما يتعلق بحصة النساء في الإسلام مثلاً (السورة ٤، النساء: ١١ـ١٢):

﴿...وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون..﴾ .

٢٣ ـ النساء كشاهدات على العقود: في حالة العقود التجارية فإن شهادة المرأة ليست نصف شهادة الرجل كما يعتقد في المجتمعات

الإسلامية. إن قراءة متأنية للآيات التالية تظهر أنه بالرغم من ذكر امرأتين لكن فقط واحدة منهن هي الشاهدة، والأخرى مساعدة: «شيء مماثل لمستشار قانوني» والتي من الممكن أن «تُذَكِّرَها» في حال تشوشها بشأن ما، لكنها ليست شاهدة:

﴿[ياأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدينٍ... إن تضلَّ إحداهما فتذكِّر إحداهما الأخرى..﴾

(السورة ٢، البقرة: ٢٨٢).

٢٤ ـ النساء كمدافعات: تبعاً للقرآن للمرأة الحق أن تظهر كمدافعة عن حقها الخاص ضد زوجها. بكلمة أخرى فإن المرأة في الإسلام غير مطالبة بتحمل اضطهاد زوجها ومعاملته غير العادلة دون الشكوى من ذلك. مثلاً (السورة ٥٨، المجادلة: ١):

﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع عليم﴾ .

٢٥ ـ عقاب مشوهي سمعة النساء الفاضلات: مميزاً إلى أي حد سمعة النساء هشة في الحضارات البطريركية، يصف القرآن عقاباً شديداً لأولئك الذين لا يستطيعون تقديم أربعة شهود لتوثيق التهم الموجهة ضد النساء: [اللاتي يُفترض أنهن عفيفات حتى إثبات الذنب]

﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ (السورة ٢٤، النور: ٤)
﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لُعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾ .

الهوامش

هوامش الفصل الأول

١ ـ (سورة ٤: النساء ٣٤).

٢ ـ (سورة ٤: النساء ١١).

٣ ـ (سورة ٢: البقرة ٢٨٢).

٤ ـ الأحاديث الموجودة في «صحيح البخاري» و «صحيح مسلم».

٥ ـ محمد إقبال «إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام»
Ikbal, The Reconstruction of Religious Thought in Islam (Labor: Shikh Muhammad Ashraf, 1962), P. 82.

٦ ـ Guillaume، Alfred، The Traditional of Islam، (Beirut: Khayat's Library ١٩٦٦) «تقليدية الإسلام » ص ٣٢.

٧ ـ على سبيل المثال: انظر (سورة ١٥: الحجر (٢٦ـ٤٣) (سورة ١٧: الإسراء ٦١ ـ ٦٤) (سورة ١٨: الكهف ٥٠) و(سورة ٣٨: ص ٧١ـ٨٥).

٨ ـ The Reconstruction of Religious Thought in Islam، p. ٨٤.

٩ ـ Izutsu، Toshihico، The Structure of Ethical Terms in the Koran، (Mita، Siba، Minatoku ـ Tokyo: Keio Institue of philosophical studies، ١٩٥٩)، pp. ١٥٢ـ١٥٣.

١٠ ـ The Reconstruction of Religious Thought in. Islam، p. ٨٥

١١ ـ أبو الأعلى المودودي معنى القرآن The Meaning of the Koran الجزء الثاني ص ١٦ رقم.١٣

١٢ ـ يأتي هذا التعبير من (AD ١٦٠ـ٢٢٥) Tertullian. أب كنسي من إفريقيا الشمالية الذي كتب: «وهل أنتن لا تعلمن أنكنّ حوّاء ».

«إن جملة الله على جنسكنّ تحيا في هذا العصر: من الضروري للذنب أن يعيش أيضاً أنت بوابة الشيطان؛ أنت من فضّ تلك الشجرة المحرّمة أنت الهارب الأول من القانون الإلهي؛ أنت التي أقنعته والذي لم يكن الشيطان شجاعاً بما فيه الكفاية

لمهاجمته. لقد حطّمت بسهولة كبيرة صورة الله الرجل بسبب استحقاقك للعقوبة - وهي الموت - حتّى ابن الله عليه أن يموت».
Biblical Affirmations :cited in ١،١ De Cult Feminarum The:Philadelphia) ،by Leonard Swidler ،of Woman ٣٤٦. .p ،(١٩٧٩ ،Westminister Press

١٣ - فاطمة المرنيسي ما بعد الحجاب Beyond the Veil ص ١٠٣.

١٤ - معنى القرآن The Meaning of the Koran ص ٣٢١.

١٥ - . sadiq hasan ،Khan «حسن الأسوة» تفاصيل النشر غير متوافرة ص ٢٨١.

هوامش الفصل الثاني

١ - is the nation of human right ،Raimundo Pannikar ?western (concept)، p. ٣١ (هل فكرة حقوق الإنسان مفهوم غربي) ص ٣١.

٢ - المرجع ذاته.

٣ - اقتباس من تقديم لِـ E. W. Fernea بعنوان: «أدوار النساء في الإسلام: الماضي والحاضر».

٤ - توماس كارليل Thomas Carlyle (البطل كنبي محمد: الإسلام) في «الأبطال عبادة الأبطال والبطولي في التاريخ» ص ٢٧٩.

٥ - من القرآن (السورة ٥٣: النجم ٤٢) ترجمة محمد إقبال: «إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام» ص ٥٧.

٦ - على سبيل المثال: انظر (السورة ١٥: الحجر ٨٥) (السورة ١٦: النحل ٣) (السورة ٤٤: الدخان ٣٩) السورة ٤٥: الجاثيات ٢٢) و(السورة ٤٦: الأسقاف ٣).

٧ - الإشارة هنا إلى (السورة ٢: البقرة ٣٠-٣٤).

٨ - Fyzee «اقتراب حديث من الإسلام» ص ١٧.

٩ - المرجع ذاته.

١٠ - الإشارة هنا إلى (السورة ٢: البقرة ١٧٧).

١١ - A. Parwez تبويب القرآن الجزء الأول ص ٧٨.

١٢ - A. Parwez «الإسلام: تحدي للدين» ص ٣٤٦.

١٣ - الإشارة هنا إلى (السورة ٤٢: الشورى ٢١).

١٤ ـ الإشارة هنا إلى (السورة ١٢: يوسف ٤٠).
١٥ ـ الإشارة هنا إلى (السورة ٤٢: الشورى ٣٨).
١٦ ـ رسالة القرآن مرجع سابق الذكر ص ٥٧.
١٧ ـ الإشارة هنا إلى (السورة ٢: البقرة).
١٨ ـ الإشارة هنا إلى (السورة ٣٩: الزمر ٩).
١٩ ـ الإشارة هنا إلى (السورة ٩: التوبة ١٢٢).
٢٠ ـ الإشارة هنا إلى (السورة ٦: الأنعام ١٥٦) و(السورة ٦٧: الملك ١٥).
٢١ ـ على سبيل المثال: انظر (السورة ٢٤: النور ٥٨ ـ ٢٧ ـ ٢٨) (السورة ٣٣: الأحزاب ٥٣) (السورة ٤٩: الحجرات ١٢).
٢٢ ـ رسالة القرآن مرجع سابق الذكر ص ٢٠٧.
٢٣ ـ يمكن الإشارة إلى عدة نصوص قرآنية مثلاً: (السورة ٢: البقرة ٢٢٩) (السورة ٣: آل عمران ١٧،١٧) (السورة ٥: المائدة ١، ٤٢،٤٨) (السورة ٩: التوبة ١٧) (السورة ١٧: الإسراء ٣٤) و(السورة ٦٧: الملك ١٥).
٢٤ ـ مثلاً: R. A. Jullundri «حقوق الإنسان في الإسلام» في «فهم حقوق الإسلام».
٢٥ ـ مثلاً: أبو الأعلى المودودي «حقوق الإنسان في الإسلام».
٢٦ ـ على سبيل المثال: انظر (السورة ٤: النساء ٤ ، ١٩) (السورة ٢٤: النور ٣٣) (السورة ٢: البقرة ١٨٧) (السورة ٩: التوبة ٧١) (السورة ٧: الأعراف ١٨٩) و(السورة ٣٠: الروم ٢١).
٢٧ ـ على سبيل المثال: انظر السورة ٢: البقرة ٢٣١ ، ٢٤١).
٢٨ ـ الإشارة هنا إلى (السورة ٤: النساء ٢ـ٣).
٢٩ ـ على سبيل المثال: انظر (السورة ٢٤: النور ٣٠،٣١) و(السورة ٣٣: الأحزاب ٥٩).

هوامش الفصل الثالث

١ ـ ترجمة F. Rahman : «الدين والأبوة المنظمة في باكستان» ص ٩٤ في مواقف المسلمين تجاه تنظيم الأسرة تأليف Olivia Schieffelin .
٢ ـ أبو الأعلى المودودي التحكم بالنسل ص ٨٣.
٣ ـ Parwez G. A. لغة القرآن الجزء ٣ ص ص ١٣٣٨ ـ ١٣٤٠.
٤ ـ على سبيل المثال: انظر (السورة ٥٢: الطور ٢١) (السورة ٧٤: المدثر ٣٨).

٥ ـ «الدين والأبوة المنظمة في باكستان» مصدر سابق الذكر ص ٩٤.
٦ ـ محمد إقبال إعادة البناء في الفكر الديني في الإسلام ص ١٦٥.
٧ ـ المرجع نفسه ص ص ١٦٥ ـ ١٦٦.
٨ ـ على سبيل المثال: انظر (السورة ٢: البقرة ١٧٧، ٢٥٦ ، ٢٨٢) (السورة ٣: آل عمران ٧٩،١٥٩) (السورة ٤: النساء ٣٦، ٩٢، ١٣٥، ١٣٦) (السورة : المائدة ٨٩) (السورة ٦: الأنعام ١٠٧، ١٠٨) (السورة ٩: التوبة ٦٠) (السورة ١٠: يونس ٩٩) (السورة ١٢: يوسف ٤٠) (السورة ١٦: النحل ٨٢) (السورة ١٨:الكهف ٢٩) (السورة ٢٤: النور ٣٣) (السورة ٤٢: الشورى ٢١، ٣٨ ، ٤٨) (السورة ٤٧: محمد ٤) (السورة ٥٨: المجادلة ٣).
٩ ـ على سبيل المثال: انظر (السورة ٤: النساء ١٤٨،١٤٩) (السورة ٢٤: النور ١٦ـ١٩ ٢٧ـ٢٨، ٥٩) (السورة ٣٣: الأحزاب ٥٣) (السورة ٤٩: الحجرات ١١، ١٢).
١٠ ـ على سبيل المثال: انظر (السورة ٩: التوبة ١٢٢) (السورة ٢٠: طه ١١٤) (السورة ٣٩: الزمر ٩) (السورة ٩٦: العلق ١ـ٥).
١١ ـ على سبيل المثال: انظر (السورة ٤: النساء ١١ـ١٢، ٣١).
١٢ ـ على سبيل المثال: انظر (السورة ٢: البقرة ٢٢٩) (السورة ٣: الأنعام ١٧، ٧٧) (السورة ٥: المائدة ١) (السورة ١٧: الإسراء ٣٤) (السورة ٦٧: الملك ١٥).
١٣ ـ على سبيل المثال: انظر (السورة ٤: النساء ٩٧ـ١٠٠).
١٤ ـ على سبيل المثال: انظر (السورة ٧: الأعراف ٣٢) (السورة ٥٧: الحديد ٢٧).
١٥ ـ من أجل شرح مفصّل لحقوق الإنسان المؤكدة في القرآن انظر ورقتي ذات العنوان: «في حقوق الإنسان والفَهم القرآني» المنشورة في صحيفة دراسات عالمية الجزء XIX صيف ١٩٨٢ ص ٥١ـ٦٥ والمُعاد نشرها في: حقوق الإنسان والتقاليد الدينية المؤَلفة من Arlene Swidler. .
١٦ ـ Rahman F. الصحة والطب في التقليد الإسلامي ص ١١٣.
١٧ ـ المرجع نفسه.
١٨ ـ المرجع نفسه.
١٩ ـ المرجع نفسه.
٢٠ ـ إنه من المعتقد بشكل واسع أن النبي (ص) قد قال: «من يتزوج يكمل نصف دينه»».
٢١ ـ الصحة والطب في التقليد الإسلامي مرجع سابق الذكر.
٢٢ ـ المرجع نفسه
٢٣ ـ الإسلام وتنظيم الأسرة: رؤية تقدمية مرجع سابق الذكر ص ٥.

٢٤ ـ Osman Fathi، الفكر الإسلام والتطور ص ١٩٧.
٢٥ ـ المرجع نفسه.
٢٦ ـ L. D. Bowen. الإسلام وتنظيم الأسرة الجزء ١ ص ١٠.
٢٧ ـ الصحة والطب في التقليد الإسلامي مرجع سابق الذكر ص ١١٤.
٢٨ ـ Wahbah al ـZuhaili الفقه الإسلام وأدلته الجزء ٧ ص ص ٣٣١ـ٣٣٢.
٢٩ ـ الصحة والطب في التقليد الإسلامي مرجع سابق الذكر ص ١١٤.
٣٠ ـ الإسلام وتنظيم الأسرة مرجع سابق الذكر ص ١٠.
٣١ ـ الصحة والطب في التقليد الإسلامي مرجع سابق الذكر ص ١١٥.
٣٢ ـ المرجع نفسه ص ١١٨.
٣٣ ـ الإسلام وتنظيم الأسرة مرجع سابق الذكر ص ١٠ ـ ١٢ .
٣٤ ـ Omran، R. A. تنظيم الأسرة في تراث الإسلام ص ٣٣٢.
٣٥ ـ في هذا السياق يُشار على سبيل المثال إلى «قانون الحدود» ١٩٧٩ أو «قانون الدليل» ١٩٨٤ الذين طُبقا في باكستان كجزء من منهاج «التوجه الإسلامي» Islamization وكلا القانونين المذكورين كانا مميزان ضد النساء اللواتي تأثرت حياتهن سلبياً بشكل ملموس.
٣٦ ـ التحكم بالنسل مرجع سابق الذكر ص ١٧٦.
٣٧ ـ Sobhan، Salam التاريخ السياسي في شبه القارة الهندية ورقة قرأت في مؤتمر «النساء الإسلام والتطور» الذي رعاه وزير خارجية هولندا والذي أقيم في لاهاي في ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٣.

هوامش الفصل الرابع

١ ـ مثلاً: القديس بولس الطرسوسي St. Paul of Tarsus .
٢ ـ G. A. Parwez, Islam, A challeng to Religion, P32.
٣ ـ G. A. Parwez, Letters to Tahira , Tahira kay Nam, P323 - 343.
٤ ـ G. A. Pawrez، تبويب القرآن الجزء ٣ ص ١٣٦٢.
٥ ـ مثلاً في الهند وباكستان وبنغلادش.
٦ ـ شهدتُ زفاف طالبين مسلمين من إيران كان المهر المكتوب مليون دولار.
٧ ـ H. Abdulati, Islam in Focus P114.
٨ ـ المرجع نفسه.

٩ ـ تبويب القرآن الجزء ٢ ص ٩٧٦.
١٠ ـ Letters to Tahira ص ٣٢٠ـ٣٢٢.
١١ ـ (السورة ٣٣: الأحزاب ٥٢).

هوامش الفصل الخامس

١ ـ Suratgar, Olive, "I sing in the wilderness" the "struggle in the quality in Iran" in The Middle East Journal, P197.
٢ ـ القرآن.
٣ ـ Parwez, G. A. لغة القرآن ج ٢ ص ٨٢٨.
٤ ـ القرآن.
٥ ـ Antoun, R. C. . «في احتشام النساء في القرى العربية المسلمة: دراسة في التكيف مع التقاليد» عالم إنسان أميركي ص ٦٧٢.
٦ ـ القرآن.
٧ ـ كان أبو الأعلى المودودي الباكستاني من أكثر المتشددين للتحجب الكلي للنساء المسلمات وكان لكتابه «البردة ووضع المرأة في الإسلام» تأثير كبير في العديد من البلدان الإسلامية وبين المعتنقين الجدد للإسلام.
٨ ـ Letters to Tahira, Parwez, G. A. ص ١٩٧.
٩ ـ محمد إقبال إعادة بناء التفكير الديني في الإسلام ص ١٥١.
١٠ ـ نفس المرجع السابق ص ١٧٨.
١١ ـ نفس المرجع السابق ص ١٦٨.
١٢ ـ نفس المرجع السابق.

المحتويات

الإسلام وحقوق النساء

في كتابها (محمد محاولة غربية في فهم الإسلام)، تقول كارين آرمسترونغ:

«على النساء الغربيات من دعاة حقوق المرأة واللواتي يتهجمن على الإسلام ويتهمنه بدعوى أنه يحط من شأن النساء، عليهن أن يعْلَمْنَ أنَّ الإسلام ونبيّه محمد أعطى النساء حقوقاً ظل الغرب ينتظر حتى نهاية القرن التاسع عشر ليحصل على مثلها، وأنَّ علماء المسيحية لاموا الإسلام على ما أعطاه للنساء والعبيد من حقوق».

ومؤلفة هذا الكتاب، رفعت حسان، الباكستانية الأصل تنطلق من هذه المقولة، أي أن الإسلام يعطي النساء حقوقاً كثيرةً وعلى قدم المساواة مع الرجل. وتعود في تقديم حججها بالدرجة الأولى الى المرجع الأول في الإسلام، أي القرآن. وتحاول من خلال الرد على التهجمات الغربية وبعض المسلمين المتحجرين، اظهار المكانة الرفيعة للمرأة في الإسلام. وهي تدعو النساء المسلمات الى البحث والتحري بأنفسهنَّ عن مكانتهنَّ في دينهنَّ (الإسلام) لأن الحيف الذي لحق بهنّ تحت اسم الإسلام جاء بسبب تخليهنَّ عن مهمة البحث والمتابعة وايكال تعيين موقعهن الى الرجال.

والكاتبة عضوة نشيطة في المؤتمرات الدولية حول حقوق المرأة وجعلتها دراستها المركّزة للنص القرآني على مدى عشر سنين، تدرك الفجوة بين ما أراده القرآن وبين ما يحدث لهنّ بين الحين والآخر في بعض المراحل المتخلفة، وهي تُقدِّم في عملها هذا قراءات جديدة.

الناشر

